جون ديوي

الفردية

قديماً وحديثاً



ترجمة: وليد شحادة

الفردية

قديماً وحديثاً

عنـــوان الكتــــاب : الفردية قديماً وحديثاً

المؤلـــــــــــف : جون ديوي

ترجمهـــا للعربيـــة : وليد شحادة

الـنـاشـــــــــر : دار الفـرقـد

الطبعـــــــة الأولى : 2014

التنفيـذ والإشـراف : دار الفرقد

الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

سـورية ـ دمشق

هـاتف : 6660915 - 6618303 (00963-11)

ص . ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)

البـريـــد الإلـكـترونـــي : alfarqad70@ Gmail.com / hotmail.com

الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

جون ديوي

الفردية

قديماً وحديثاً

ترجمة

وليد شحادة

المؤلف

ولـد جـون ديـوي John Dewey في إحـدى ضـواحي مدينـة بيرلنغتـون Burlington بولايـة فيرمونـت Vermont بتـاريخ 20 تشرين الأول/أكتوبر عام 1859. وبعد عشرين عاماً تخرج من جامعة فيرمونت، حيث بدأ حياته العملية بالتدريس في المدارس العامة بولاية بنسلفانيا وولاية فيرمونت. وبما أن المسائل الفلسفية استحوذت على اهتمامه منذ مرحلة دراسته الجامعية الأولى فقد تابع دراسته للفلسفة في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins، حيث حصل عام 1984 على شهادة الدكتوراة في الفلسفة من هذه الجامعة، ثم ما لبث أن شغل موقعاً في قسم الفلسفة بجامعة متشغن Michigan. وبقي ديوي في هذه الجامعة حتى عام 1894 تولى خلالها منصب رئيس القسم لمدة خمس سنوات، كما تخللها عمل لمدة عام واحد أستاذاً للفلسفة في جامعة مينيسوتا Minnesota.

في عام 1894 انتقل مع زوجته أليس تشبمن Alice Chipman إلى جامعة شيكاغو Chicago وفيها بدأ ولايته رئيساً لقسم الفلسفة. من خلال عمله في هذه الجامعة حاز ديوي على تقدير وطني عام لأعماله الرائدة في التربية والتعليم وبخاصة عندما عمل على تطوير المدرسة المخبر حيث يجري استكشاف المقاربات التجريبية في التعليم. لكنه ترك هذه الجامعة عام 1904 ليتسلم منصب الأستاذية في الفلسفة في جامعة كولومبيا Columbia، وذلك إثر نزاع حول إدارة تلك المدرسة.

لقد كان موقع ديوي الأكاديمي بجامعة كولومبيا بمثابة منصة انطلاق لاهتماماته العديدة والمتنوعة على مدى ستة وعشرين عاماً، منها على سبيل المثال، المسائل الاجتماعية، السياسة، التربية، والشؤون العامة، وكان لشهرته على المستويين الوطني والدولي ما هيأ له العمل مع العديد من الجماعات منها الجمعية الفلسفية الأمريكية والرابطة الأمريكية لأساتذة الجامعات (حيث أسس هذه الرابطة وكان أول رئيس لها) ونقابة المعلمين واتحاد الحريات المدنية الأمريكية وغيرها.

لم يكن ديوي كغيره من الكثيرين الذين يرون في التقاعد فرصة للراحة والمتعة والتمتع بمباهج الحياة في هذا الوقت المتأخر من العمر، بل لقد كرس بقية عمره لفهم ودراسة مختلف المسائل الاجتماعية العسيرة التي تواجه أمريكا والعالم. فانضم إلى منظمات كان هدفها الرئيسي رفع مستوى التعليم العام في

مجـالات الـسياسة المحلية والدوليـة. وكـان مـن أشـهر منتدياتـه العامـة مـشاركته في الهيئـة الـتي انعقـدت في مدينـة مكـسيكو بهـدف التحقيـق في الـتهم الموجهـة ضـد ليـون تروتـسكي Leon Trotsky أثنــاء محاكمتــه في موســكو. وبالتــالي وجــدت أن تروتـسكي بـريء مـن كـل الـتهم. وكـان أيـضاً واحـداً مـن زمـلاء عدة تولوا الدفاع عن زميلهم الفيلسوف برترانـد راسـل Bertrand Russel عندما حرم من التدريس في كلية City College بجامعة نيويـورك بـسبب مـا وجـه مـن نقـد عـام لآرائـه بخـصوص الـزواج والدين.

عندما عمل جون ديوي على تطوير موقفه الفلسفي الفريد تحـرر مـن مثاليـة هيغـل Hegelian idealism وآمـن بـآراء ولـيم جيمس William James الذرائعية (البراغماتية). لكـن ولـع ديـوي بحريـة الـسؤال والاسـتفـسار والمـنهج العلمـي جعلـه يقـود المعارضـة الفكرية للاعتقـاد الـسائد بـأن المعرفـة المطلقـة يمكـن الحـصول عليها في عالم يتسم بظروف متنوعة واكتشافات مختلفة وبحـوث رائدة وتقدم في مجـالات عدة. فالمعرفـة عنـد ديـوي ليست مطلقـة، ولا هي غير قابلة للمحاكـاة ولا خالـدة، بل تتعلق بالتفاعـل المتطـور للإنسان مع عالمه عنـدما تنـشأ المـشكلات وتكـون بحاجـة للحـل. وهـذه المقاربـة العلميـة الـتي تـسمح للمـرء بـأن يعلـن صـدق الادعـاء حتى، وحتى فقـط، يظهـر دليـل سـلبي يـكفـي لـدحض الفرضـية، هـي في الوقت نفسه مقاربة تفـتح الـذهن علـى الحـاجـة إلى مقاربـة

ديمقراطية لحل المشكلات. لذلك يمكن القول بأنه لا يوجد أمل للمجتمع بتطور ناضج دون تعاون وقبول عقلاني لمختلف الآراء داخل مجتمع تعددي.

ألّف ديوي خلال سني حياته البالغة اثنين وتسعين عاماً ما ينوف على خمسة وعشرين كتاباً وكتب العشرات من المقالات التي نشرت في مطبوعات علمية وشعبية. فهو بحق فيلسوف أمريكا الأول، الذي ستترك فلسفته أثرها لدى المفكرين في أرجاء العالم كافة لسنوات عديدة قادمة.

توفي جون ديوي في مدينة نيويورك في الأول من حزيران/يونيو عام 1952.

المحتوى

الفصل الأول

البيت المنقسم على نفسه *

لقد بات من المألوف أن نقول بأننا، فكراً وشعوراً، أو في الحد الأدنى في اللغة التي بها يجري التعبير عن هذا الفكر والشعور، نعيش في قرن مضى، أو لنقل في زمن ما بين القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر، مع أننا جسدياً وخارجياً ننتمي للقرن العشرين. وفي حالة تتسم بالتناقض كهذه الحالة ليس مستغرباً أن نجد تقريراً عن الحياة الأمريكية يشير كثيراً ومراراً إلى أن حالة ذهنية "مضطربة" و "مذهولة" هي صفة مميزة لنا، مثل ذلك التقرير المنشور في صحيفة Middletown، على سبيل المثال.

* [نشرت هذه الدراسة لأول مرة تحت العنوان نفسه في مجلة New Republic (58) تاريخ 1929/4/24].

أما إذا تحدثنا في إطار علم الأنثروبولوجيا ودراسة عادات الإنسان ومعتقداته فنحن نعيش في ثقافة المال، حيث تهيمن على حياتنا عقيدة وطقوس هذه الثقافة. "وهذا المال الذي يشكل الأداة والوسيلة لهذا التبادل والتجمع العنقودي للأنشطة المترافقة مع عمليات الحصول عليه هو ما يقرر وبشكل صارم وحاد جميع أنشطة الناس الأخرى"، كما جاء في التقرير. وهذا بالطبع هو الحال كما يجب أن يكون، فالناس مضطرون لكسب عيشهم، أليس كذلك؟ وإن لم يعملوا لكسب المال فمن أجل ماذا يعملون؟ وكيف يكون سبيلهم للحصول على السلع ومباهج الحياة إن لم يشتروها بالمال؟ وعلى هذا النحو هم يجعلون الآخرين قادرين على كسب المزيد من المال، وبالتالي يفتحون المحال التجارية والمصانع التي تهيء فرص العمل لآخرين ليصبحوا هم أيضاً بدورهم قادرين على كسب المزيد من المال من خلال بيع السلع، وهكذا دواليك وإلى ما لا نهاية. وهذا كله لغاية الآن من أجل الأفضل في الأفضل من كل الثقافات الممكنة، ألا وهي فرديتنا الفظة – أم هي فرديتنا البالية؟

وإذ تطور هذا النمط الثقافي فقد صار المجتمع منقسماً إلى طبقتين، جماعة العمل وجماعة الأعمال (بما فيها الاختصاصيون)، وبحيث تشكل الجماعة الأولى نحو ضعفين ونصف ضعف الجماعة الثانية، وبحيث يكون الطموح الأسمى عند الآباء في الجماعة الأولى أن يرتقي أبناؤهم ليصبحوا أفراداً

في الثانية، فهذا أمر لا ريب فيه ذلك أن طريقة الحياة الأمريكية تقدم فرصاً لا مثيل لها لكل فرد ليعمل وينجح بحسب ما لديه من مزايا وفاعلية. وإذا كان عدد قليل من العمال يعلمون ما الذي يصنعونه أو معنى ما يفعلون، وإذا كان عدد أقل منهم يعلمون ما مصير العمل الذي بأيديهم – ونقصد بذلك أن واحداً من عشرة بالمائة مما تنتجه أكبر صناعة في مدينة مدلتاون Middletown يستهلك محلياً – فهذا بالتأكيد ناجم عن كوننا قد أتقنا صنع نظامنا في التوزيع بحيث يكون البلد كله بلداً واحداً. وإذا كانت جماهير العمال تعيش في خوف دائم من فقدان العمل فهذا بالتأكيد ناجم عن أن روحنا المحبة للتقدم تتمثل في تغيير الطراز واختراع الآلات الجديدة وقوة الإنتاج المفرط والتي تجعل كل شيء في حراك مستمر. إن المكافأة التي جنيناها من الصناعة ومن قوة النمو قد ضُبطت بشكل دقيق على إيقاع قدرات الفرد الطبيعية والمناسبة وبحيث يتعين على العمال أن ينظروا بخوف إلى سن الخمسين أو الخامسة والخمسين عندما يوضعون على الرف.

نحن نأخذ هذا كله على أنه أمر مسلم به، ونتعامل معه على أنه جزء حتمي من نظامنا الاجتماعي. أما التفكير في الجانب المعتم لهذا النظام فهذا تجديف بحق إيماننا بالنجاح والازدهار. ومع ذلك فهو نظام يستدعي فلسفة واقعية تتصف بالنشاط ولا تعرف الكلل. إذا نظر المرء إلى ما نفعل وما يحدث، ثم يتوقع أن يجد نظرية للحياة تتناغم مع واقع الحال فسوف

تصدمه حالة التناقض التي يتوصل إليها. والسبب أن الموقف يقتضي التأكيد على الحتمية الاقتصادية الكاملة القائلة بأن ما نراه هو تبعات لا يمكن اجتنابها وبأنها خارجة عن إرادة الإنسان. فنحن نعيش كما لو أن القوى الاقتصادية قد قررت النمو وانحلال المؤسسات وحددت مصائر الأفراد. فأصبحت الحرية كلمة تدنو كثيراً من الزوال، ونحن نبدأ حركتنا ونمضي ثم نتوقف عند إشارة تدل على آلة صناعية هائلة. ومرة أخرى يبدو النظام الحقيقي وكأنه ينطوي على مخطط مادي دقيق للقيمة. فالجدارة تقاس بالقدرة على ثبات المرء أو قدرته على المضي قدماً في ذلك السباق التنافسي للمال. "داخل خصوصية المنازل المهلهلة أو الطموحة تمضي قدماً حالات الزواج والولادة وتربية الأطفال والموت والمصاعب الشخصية في الحياة العائلية. ولكن ليست هذه الإلحاحات الوظيفية في الحياة هي التي تقرر كيف ينبغي أن تكون هذه الضرورة الجسدية مواتية لهذه الإلحاحات، إنما تلك التفاصيل الخارجية الدخيلة بخصوص كم من المال يكسب الأب هي التي تقرر ذلك." فالفلسفة المناسبة لهذه الحالة هي فلسفة الصراع من أجل الوجود ومن أجل بقاء ما هو المناسب اقتصادياً. قد يتوقع المرء أن تكون النظرية الداروينية Darwinism في أصل الأنواع الأكثر تطرفاً هي نظرية الحياة الراهنة إذا كانت تعكس الحالة الفعلية والحقيقية. وأخيراً، قد يتوقع المرء أن تكون الصفات الشخصية الثمينة هي الرؤية الواضحة للتفوق

الشخصي والطموح العنيد لتأمين ذلك إنما على حساب أي كلفة بشرية. فالعواطف والتعاطف ستكون في أدنى درجاتها.

وغني عن القول إن النظرة الحالية للحياة في مدينة مدلتاون Middletown أو في أي مدينة أخرى ليست من هذا النوع. لا شيء يسبب لنا، نحن الأمريكيين، مخاوف أكثر من سماع مخلوق مضلل في مكان منخفض من الأرض يلقي مواعظه بخصوص ما نفعله، بل ونفعله بفاعلية أكبر كثيراً من أي شخص آخر، ألا وهو الحتمية الاقتصادية. تتلخص نظريتنا نحن في أن الإنسان يخطط ويستخدم الآلات في سبيل أغراضه الإنسانية والأخلاقية، بدلاً من أن يكون محمولاً تأخذه الآلة حيثما تشاء. لكن مثاليتنا، بدلاً من المادية، هي على أبعد احتمال، الصوت الأعلى للفلسفة والأكثر تواتراً في سمع العالم. نحن نثني على رجالنا الأكثر نجاحاً، ليس لما لديهم من طاقة ذاتية التركيز شديدة القسوة في سبيل التفوق، بل بسبب محبتهم للورود وللأطفال والكلاب أو بسبب حسن معاملتهم لأقاربهم المسنّين. وأما من يشجع صراحة على عقيدة الأنانية في الحياة فنحن ننظر إليه بتجهم وعبوس في كل مكان. صحيح أن ثمة اختفاءً للبيت وأن نسب الطلاق تضاعفت كثيراً حتى وصلت نسبتها في أحد الأجيال إلى 600 بالمئة إلا أن ثمة تمجيداً كبيراً وشديد العاطفة لقدسية البيت ولجمال الحب الدائم لم يعرف له التاريخ مثيلاً. فنحن مثقلون بالغيرية وبرغبة عارمة لـ "نخدم" الآخرين.

هذا غيض من فيض من التناقضات الظاهرة بين مؤسساتنا وممارستنا من جهة وبين معتقداتنا ونظرياتنا من جهة ثانية، هي تناقضات يمكن أن تكشف عنها أي دراسة استطلاعية لمدننا. وليس مستغرباً أن نجد سكان هذه المدن وقد أصابهم الذهول، يشعرون بالخوف والقلق، والضجر يسعون دوماً لشيء ما يكون جديداً ومختلفاً، لكنهم لا يجدون إلا الشيء القديم نفسه إنما بلبوس جديد. ولعله من المفيد أن نجمل ذلك كله بالقول بأن الدين لم يلق الاحترام والتقدير في العالم كله وفي أي زمان إلا عندنا، وأنه لم يكن يوماً بعيداً كل البعد تقريباً عن الحياة كما هو حاله لدينا. وإني لأجد نفسي متردداً وحائراً في أمري بخصوص ما يكشفه هذا الكتاب عن الحياة "الدينية" في مدينة مدلتاون. لكنني أجد أن ما لدينا من تمجيد الدين من حيث كونه يضع خاتم الموافقة النهائية على النجاح المالي، وفي كونه يقدم الحافز النشط لكفاح مفعم بالطاقة في سبيل هذا النجاح، ومن خلال تبني الكنائس لأحدث أجهزة الأفلام السينمائية والإعلان فإنه يدنو كثيراً جداً وبشكل غير مقبول من الفحش. لقد تطور التعليم كثيراً ما جعل المزيد من الطلبة يواصلون تعليمهم في المرحلة الثانوية وبأعداد تفوق أعداد الطلبة في البلدان الأخرى، كما أن ما يعادل نصف هؤلاء الطلبة في السنوات الأخيرة من المدرسة الثانوية يعتقدون بأن الفصول الأولى من الكتاب العبري المقدس تقدم وصفاً دقيقاً لأصل الإنسان وتاريخه

القديم بل أكثر دقة مما يقدمه العلم وأن خمس هؤلاء لا يوافقون على ذلك. وإذا أجري استطلاع للرأي ووزّع استبيان معين على طلبة مدارسنا فمن المحتمل أن تكون النتيجة بأن النسبة المئوية المعتادة من الشباب يعتقدون بأن هاردنغ* Harding هو أعظم رجل في العالم. لكن هذه القصة كلها تروى بطريقة أخرى وبشكل موجز عندما يجري المرء موازنة بين ما يحدث فعلاً للحياة العائلية وتلك العلمنة الكاملة للأنشطة اليومية بعبارة يقولها الوعاظ من منابرهم بأن "الكلمات الثلاث الأعلى مقاماً باللغة الانكليزية هي الأم والبيت والسماء." وهذه ملاحظة قد تمر دونما اعتراض بالتأكيد عند أي جمهور أمريكي تمثيلي.

ليس ثمة فرق فيما إذا اختار المرء الجوانب الهامة أو التافهة لهذا التناقض الكائن بين حياتنا كما نحياها ظاهرياً وبين أفكارنا ومشاعرنا – أو في أقله ما نقول عنه بأنه معتقداتنا وعواطفنا. لكن السؤال الهام هو: ما سبب هذا الانقسام والتناقض؟ هنالك بالطبع من يعزو ذلك إلى حقيقة أن الناس عموماً أغبياء وسذج، ومتوقع منهم أن يقوموا بالأدوار المخصصة لهم. لكن هذا "التفسير" لا يأخذنا بعيداً حتى لو قبلنا به.

---

* وارن هاردنغ Warren Harding (1865–1923) سياسي أمريكي هو الرئيس التاسع والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية (1921- 1923) مات قبل أن يتم ولايته، ومما يجدر ذكره أن مادة هذا الفصل نشرت لأول مرة في New Republic 58 بتاريخ 1929/4/24. (م.)

فالأشكال الخاصة التي تتخذها هذه السذاجة المزعومة بقيت دون تعليل. وكلما ازدادت معرفة المرء بالتاريخ، يصبح أشد إيماناً بأن للتقاليد والمؤسسات أهمية أكبر من أهمية القدرة الفطرية على تفسير الأشياء أو انعدام هذه القدرة. وإنه لأمر واضح بجلاء بأن تحوّل حضارتنا السريع إلى الصناعة قد فاجأنا وأخذنا على حين غرة. وحيث أننا لم نكن مستعدين لها فكرياً وأخلاقياً فقد أمست عقائدنا القديمة داخلية النمو، وكلما ابتعدنا عنها فعلاً تتعالى أصواتنا في التصريح بها. فغدونا نتعامل معها كما لو أنها وصفات سحرية. ومن خلال تكرارها مراراً نأمل أن نبعد عن أنفسنا شرور المؤسسة الجديدة، أو في الحد الأدنى نمنع أنفسنا من رؤيتها ـ وهذه الوظيفة الأخيرة تقوم بها بكل اقتدار معتقداتنا التي صارت محض معتقدات اسمية.

ونحن بما لدينا من سيطرة هائلة على الوسائل وبما نملكه من تكنولوجيا آمنة نمجّد الماضي ونضفي الشرعية والمثالية على الوضع الراهن، عوضاً عن أن نسأل بكل جدية كيف يتعين علينا أن نوظف الوسائل المتاحة لنا لنشكل مجتمعاً عادلاً ومستقراً. وهذا هو أكبر تنازل فعلناه. وهو يفسر كيف ولماذا نحن بيت منقسم على نفسه. تقاليدنا وتراثنا مزدوجة. وهي تحتوي بداخلها مثالية تكافؤ الفرص والحرية للجميع دونما اعتبار للمولد والوضعية وهذا بمثابة شرط لتحقيق فعال لتلك المساواة. إن

هذه المثالية وهذا السعي الدؤوب في سبيلها كان في يوم من الأيام يشكل جوهر أمريكيتنا، التي نعتز بها ونثمنها عالياً باعتبارها سمة مميزة لعالم جديد. وهي العنصر الروحي الصادق والأصيل في تقاليدنا. ولا يستطيع أحد أن يقول صادقاً بأن هذا العنصر قد تضاءل وتلاشى. لكن الوعد الذي تضمنه بأنه يبشر بمستقبل أخلاقي وديني جديد لمّا يتحقق. لم يصبح بعد ينبوع توافق فكري جديد، وليس المصدر الحيوي (حتى في اللاشعور) لفلسفة مميزة ومشتركة. بل هو يوجه سياستنا إنما على نحو متقطع فقط، وفي الوقت عينه فقد زوّد بسخاء مدارسنا التي ليس له فيها سيطرة على أهدافها وطرائقها.

في غضون ذلك تجسد مؤسساتنا تقليداً آخر وأكثر قدماً. فالصناعة والأعمال التي تهدف للربح المالي ليست بالشيء الجديد، ولا هي منتج عصرنا وثقافتنا، بل جاءت إلينا من الماضي البعيد. إنما اختراع الآلة أعطاها القوة والآفاق التي لم تعرفها في الماضي الذي منه أتت. أما قوانينا وسياستنا وحالات الترابط البشري فتعتمد على اتحاد جديد بين الآلة والمال فكانت نتيجة ذلك أن غدت ثقافة المال السمة الأبرز لحضارتنا. وأما العامل الروحي لتراثنا وما رافقه من تكافؤ الفرص والتجمع الحر والتواصل البيني فقد احتجب واختفى وطغت عليه أشياء كثيرة. وبدلاً من تطوير الفردية التي تنبأ بها يوجد تحريف وإساءة

استخدام لكامل مثالية الفردية بحيث تتوافق مع ممارسات ثقافة المال، التي باتت المصدر والمسوّغ للامساواة وللاضطهاد. ومن هنا نشأت التسويات والحلول الوسط والنزاعات التي من خلالها أصاب الأهداف والمعايير اضطراب وتشوش حتى لم نعد نعرفها.

الفصل الثاني

"أمريكا" ـ حسب صيغة خاصة*

سمعنا كثيراً في السنوات القليلة الماضية عن الوعي الطبقي. أما عبارة "الوعي القومي" فلا يبدو أنها عبارة متداولة، إنما القومية في عصرنا هذا فهي في حقيقة الأمر تعبير مضخم لهذا الشعور. بل إن ثمة بعض المظاهر الأكثر حداثة لها تسمى "الوعي الثقافي" و "الوعي الحضاري". لكن هذه المظاهر، مثلها مثل الوعي الطبقي أو القومية، تتخذ شكلاً مؤذياً يثير الاستياء. فهو كالدالة الأُسيّة ـ أو العامل الرياضي ـ للصراع بين الجماعات. أما الحرب وما نتج عنها فقد لا تكون أنتجت في بلادنا وعياً وشعوراً

---

* انشرت لأول مرة تحت العنوان نفسه في مجلة 60 New America بتاريخ 1929/9/18م.

بـ "الأمريكية" على أنها طريقة مميزة للحضارة إلا أنها أعطت هذه النتيجة بالتأكيد عند النخبة الفكرية في أوروبا.

بيد أن "الأمريكية" من حيث هي شكل للثقافة لم توجد عند الأوروبيين قبل الحرب. أما الآن فهي موجودة بلا ريب، وتشكل خطراً وتهديداً لهم. ورداً على هذا الظهور واعتراضاً عليه أيضاً تكوّن لديهم، أو على الأقل لدى جماعة الأدباء، شعور بثقافة أوروبية متميزة، هي بنظرهم شيء ثمين ونفيس يتهدده غزو لشكل جديد من البربرية قادم من الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا نجد عداوة حادة وقاسية لتأثير أجنبي قوي قد بدأ يحل محل تجاهل عن طيب خاطر لما كان يبدو تافهاً وجديراً بالإهمال. وقد يحتاج الأمر لمن هم أكثر معرفة مني لتعداد عناوين الكتب والمقالات الصادرة سنوياً من مطابع أوروبا موضوعاتها الرئيسة تهديد "أمريكا" للإرث الثقافي الأوروبي.

لست مهتماً في هذا المقام بالجانب الأوروبي للمسألة. فمعظم عمليات التوحيد الاجتماعي تحدث استجابة لضغط من الخارج. وربما يكون ذلك صحيحاً لو رأينا ولايات متحدة أوروبية. وإن أمكن تقريب المثالي للواقع فلعله يكون رد فعل وقائي للهيمنة المالية والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية. ولعل النتيجة

تكون خيراً لأوروبا، وبالتالي نكون نحن دون أن ندري قد خدمنا هدفاً نبيلاً على المستوى الدولي. ولكن ليس ثمة عزاء لنا،

في نهاية المطاف، أن نعلم بأننا في فقدنا لروحنا قد ساعدنا في إنقاذ روح شخص آخر. لكنني أريد أن أسأل ما هي صورة أمريكا التي أخذت تتشكل في أذهان النقاد الأوروبيين؟

بعض هؤلاء الكتاب جهلة لكنهم لاذعون في تعصبهم. فهؤلاء يمكن أن نهملهم. أما الآخرون فهم أذكياء ولديهم معرفة واسعة لا يختلفون بشيء عن أي أجنبي لديه معرفة عن بلد غير بلده، وهم ليسوا مجردين من العاطفة. إضافة لذلك فإن أحكامهم قد لا تتفق مع أحكام بعضهم بعضاً فحسب بل ومع احتجاجات معارضين منشقين من أبناء البلد نفسه. لذلك، ولغرض الفائدة وبسبب ذكاء المؤلف الصريح والمباشر، أستميح عذراً بالخروج قليلاً عن السياق لأقدم توصيفاً للذهن والشخصية الأمريكية قدمه مولر فراينفلز Mueller Freienfells[1]. فمعالجته للموضوع أكثر إنصافاً والسبب في ذلك أنه يدرك بأن كلمة "أمريكي" ما هي إلا نوعاً لفكر بدأ يتشكل في مختلف أنحاء العالم لأسباب متشابهة، وقد ظهر في حينه داخل أوروبا حتى لو لم تكن أمريكا الجغرافية موجودة، علماً أن تشكله

---

[1] كتاب أسرار الروح Mysteries of the Soul وقد ترجمه عن الألمانية برنارد ميال Bernard Miall عام 1929. ومن المفيد أن أضيف شيئاً بخصوص عنوان الكتاب أنه لا يوجد شيء خفي، مبهم لا يمكن فهمه، ولاشيء ظلامي في هذا الكتاب يمنع انتشار العلم والمعرفة. فالمقصود بكلمة "الروح" تلك التفاعلات الحية والمتعددة والتبادلية بين الذات والكون." (حاشية المؤلف)

في باقي دول العالم قد شهد درجة أكبر من التسارع والتكثيف وذلك بتأثير من هذا البلد.

وبمقدار إخلاص أي مواطن أمريكي حقيقي لهذا النوع الذي قيل عنه إنه "النوع" الأمريكي يتعين عليه أن يشعر بالزهو لهذه الصورة التي رسمت له. ومرد ذلك كما يقال أن هذا النوع تحول حقيقي لا زيف فيه في تاريخ الثقافة، وأنه نوع جديد ومن نتاج القرن المنصرم ومطبوع بالنجاح. وهو يحوّل الشروط الخارجية للحياة وبالتالي فهو استجابة للمحتوى المادي للحياة، وهو امتصاص واستيعاب الأنواع الأخرى ويعيد سبكها. لا يوجد فتح للعالم، رومانياً كان أم مسيحياً، يمكن أن يقارن بهذا النوع من "الأمريكية" من حيث مدى تأثيره أو فعالية هذا التأثير. فإذا كان النجاح والكم هما معايير "النوع الأمريكي" فهذا إقرار يرضي روح هذا المواطن. ومن وجهة نظر هذا النوع الذي تم توصيفه، فهو مقبول يوافق عليه الجميع، فما أهمية الانتقادات السالبة؟

ولكن، قد يكون هذا النوع لم يحدد بشكل قاطع بعد كما هو مطروح، أو لعله يوجد أفراد أمريكيون قد شذوا عن هذا النوع. والسبب وجود الكثيرين ممن لديهم تحفظات في إعجابهم بتلك الصورة المطروحة. وبالطبع ربما يكون هؤلاء المعارضون المنشقون، كما يقول النقاد الأوروبيون، مقامرين مترفين ضعافاً أو سمكاً خرج من الماء، مصابين بداء الحنين

للتراث الأوروبي. ومع ذلك يجدر بنا أن نطرح سؤالاً بخصوص ما إذا كان هذا النوع الأمريكي، بافتراض وجود هكذا نوع، قد اتخذ شكلاً نهائياً. ولكن، بداية، ما هي الخصائص المزعومة لهذا النوع؟

انبثقت هذه الخصائص أصلاً من اللاشخصنة. جذور الفكر هي اللاشعور والحيوي وهي في الغرائز والعواطف. وقد قيل لنا إن هذا اللاشعور مهمل في أمريكا، أو هو مكبوت أو خاضع للعقلانية الواعية، وهذا يعني أنها تتكيف طبقاً لحاجات وأحوال العالم الخارجي. نحن لدينا "الفكر" إنما هو فكر يتميز بما تعنيه البرغسونية Bergsonian*، وهو ذهن متناغم مع ظروف العمل وتأثيره في المادة، وفي العالم. حياتنا العاطفية سريعة، منفعلة بعيدة عن التمييز، تفتقر إلى الفردية والاتجاه بفعل الحياة الفكرية. ومن هنا نشأت "خارجانية وسطحية الروح الأمريكية"، فهي ليست فريدة وليس لها وحدة داخلية نهائية – دون شخصية حقيقية.

أما علامات وإشارات هذه "اللاشخصنة" في الروح البشرية فهي النظر إلى الحياة بمفهوم الكم مع ما يرافق ذلك من إهمال

---

* البرغسونية Bergsonism فلسفة تنسب للفيلسوف الفرنسي هنري برغسون Henri Bergson (1859- 1941) القائلة بأن العالم هو عملية "تطور خلاق" تكون فيه البدع غير المألوفة في الظواهر المتتابعة الحقيقة الهامة. (م.)

للكيفية، وممكننتها وتلك العادة التي تكاد تكون عامة في احترام وتقدير التقنية في كونها الغاية وليست الوسيلة حتى باتت الحياة العضوية والفكرية "معقلنة" أيضاً، وفي نهاية المطاف التوصل إلى "توحيد قياسي" (Standardization). فباتت الفوارق والتمييز مهملة ويتم تجاوزها، وبات التوافق والتماثل هو المثالي. ليس ثمة غياب للتمييز الاجتماعي فقط بل غياب للتمييز الفكري أيضاً، فأضحى التفكير الناقد مميزاً بغيابه. ميزتنا المعلنة هي التأثر بفكر الغير. وهذه التكيفية والمرونة التي نظهرها نحن في ذكائنا العملي عند التعامل مع الظروف الخارجية انتقلت إلى أرواحنا. فأصبح التجانس في الفكر والعاطفة مثالياً.

النظر بمقياس الكم والمكننة والتوحيد القياسي، هذه هي إذن علامات "الأمركة" التي بدأت تغزو العالم. ولكن لهذه العلامات جانبها الخيّر، الظروف الخارجية ومستوى المعيشة تحسنت بلا ريب. لكن آثارها لم تقتصر على هذه المسائل، بل لقد غزت الفكر والشخصية وأخضعت الروح للونها. صار النقد مألوفاً، وصار هذا النقد إلى حد كبير واجب النقاد لدينا حتى أنني لست على ثقة أكيدة من مقدار ما في صورة النقاد الأجانب التي رسمت من الملاحظة المباشرة، ومن مقدار ما أخذ من الروايات والمقالات المنتجة وطنياً والتي لا تنسجم مع المشهد الأمريكي. لكن هذه الحقيقة لا تنتقص شيئاً من قوة الاتهام، بل تزيده قوة وتثير سؤالاً طالما طرح بإصرار حول معنى حياتنا.

لن أنكر وجود هذه السمات والخصائص ولا أنكر أيضاً تلك الشرور الكثيرة للسطحية Superficialism والخارجانية Externalism وما تعنيه من إفراط في التعلق وما تعنيه من إفراط بالمظاهر الخارجية الناتجة عما تنتجه ضآلة فكرية وأخلاقية. لكن هذه السمات موجودة وهي تطبع الحياة الأمريكية بطابعها وقد بدأت تهيمن على الحياة في البلدان الأخرى. لكن فحواها وأهميتها شأن آخر مختلف عن وجودها. لقد كان مولر فراينفلز Mueller Freienfels ذكياً جداً ليعترف بأنها سمات مؤقتة وليست نهائية. وقد أدرك أن القوى جوهرية وحقيقية لذلك يعد التمرد عليها غباءاً وغباء أيضاً النوح على الماضي. لكن "السؤال هو كيف نمر عبرها ونتعالى فوقها." وهذه العبارة هي التي تميز تقييمه عن تقييم كثيرين غيره.

ولكن جواباً على هذا السؤال قد يقول المرء بأننا لا نزال في مرحلة مبكرة من هذه الفترة الانتقالية. وأي شيء يقل عمره عن مائة عام ليس لديه الوقت الكافي للكشف عن معناه في عمليات دنيوية بطيئة بتاريخ البشرية. ورب سائل يسأل عما إذا كان هذا المؤلف لم يستسلم لضعف نقاد أقل شأناً منه في تعامله مع أعراض مؤقتة زائلة فاعتبرها سمات كامنة. وليس في ذهني الآن أن أحتكم "متفائلاً" إلى زمن ما في المستقبل وما يحمله من إمكانيات. لكنني أفضل أن أطرح السؤال حول كم من العيوب

والشرور التي يفترض أنها تنتمي للنظام الحالي هي في حقيقة الأمر إسقاطات فيه لنظام مضى وانقضى.

القوة والطاقة نسبيتان وليستا مطلقتين. والغزو إظهار للضعف لدى الجهة المستهدفة بالغزو مثلما هو إظهار للقوة عند الغازي. والحالات المؤقتة هي خروج من شيء مثلما هي دخول في شيء، وهي تكشف لنا الماضي مثلما تبرز المستقبل. ولا بد أنه كان ثمة خلل عميق يصعب إدراكه في جودة وروحانية والتنوع الفردي في الماضي، وإلا ما كان لهذا التنوع أن يستسلم بسهولة مثلما قيل لنا عن خضوعه لحساب الكم والمكننة ووحدة المقاييس للحاضر. وبالتالي لم يحصل انزياح واستبدال للعناصر المشوبة بالعيوب والأخطاء. فهي لا تزال باقية في الحاضر. والظروف الحالية تعطي هذه العوامل الفرصة لتكشف عن نفسها. لذلك فهي الآن ليست مغيبة وغائبة عن الأنظار. وظهورها المكشوف ليس بالمنظر البهيج. لكنها طالما بقيت مستترة بدرجة لا تلفت الانتباه فلا يمكن التعامل معها. غير أنني أتساءل كثيراً عما إذا كان الكثير من الأشياء التي هي موضع اعتراض شديد في المشهد الحالي – وعلى نحو منصف – ليست في حقيقة الأمر كشفاً لما كان يخفيه النوع القديم للثقافة، وعما إذا كان حضورها الظاهر لصالح القوى النشطة الآن بدلاً من أن تكون عبئاً عليها.

ومن الممكن بالطبع أن نقول – كما فعل كايزرلنغ Keyserling* كما يبدو – بأن النظام الجديد أو النظام الأمريكي يعني ببساطة أن الغرائز الحيوانية عند الإنسان قد أطلقت من عقالها في وقت كان فيه التراث الأوروبي القديم قد أبقاها في حالة خضوع منضبط لشيء هو أسمى كثيراً، ويسمى "الروحانية" بشيء من الإبهام المفرح. وفي الوقت ذاته يمكن القول بأن مجرد الشك بأن الكبت ليس الحل لا يقتصر على أمريكا وحدها. فالجشع في غير محله وغير المميز عند وجود طعام في متناول اليد قد يكون عرضاً من أعراض جوع سابق وليس مجرد إظهار حتمي لآدم قديم. ولعل الثقافة التي يستند تراثها على انتقاص قيمة الجسد وعلى صنع خلاف حاد بين الجسد والفكر وبين الغريزة والعقل وبين الممارسة والنظرية قد أحدثت فساداً في الجسد وتدهوراً للروح. وقد يحتاج المرء إلى درجة من الحكمة لا يملكها أحد ليعرف من خلال مزايا الحاضر غير المرغوبة ما الذي يكون انعكاساً للماضي القديم وما هو ليس بعد نظاماً متغيراً للحياة والفكر، وما مقدار الناتج الحقيقي للقوى الجديدة.

ولكن، هنالك شيء واحد يبدو أكيداً على نحو معقول ألا وهو أن تلك "الفردية" النفيسة التي يتبجحون بها للثقافة الأوروبية

---

* الكونت هيرمان الكساندر كايزرلنغ Count Hermann Alexander Kayserling (1880- 1946) فيلسوف وأديب ألماني. (م.)

والـتي تتهـددها معـايير وانتظـام النـوع الأمريكـي كانـت مـسألة محدودة جداً. ولـو أراد المـرء أن يـرد عليهـا بمثلها فقد يـسأل كـم هي حصة الفـلاح والعامـل فيهـا. ثـم هنالـك مـا هـو أكـثر مـن الـرد بالمثل ألا وهو القول بأن طبقة الفلاحين والعمال الذين تحـرروا مـن ربق العبودية الفكرية سوف يثأرون ولـو بعـد حـين. ولأنـه لا يوجد سـحر في الديمقراطيـة يمـنح مـن فـوره قـوة التمييـز الناقـد وأثرهـا للجماهير التي كانت فيمـا مـضى خـارج الحركـة الفكريـة وإلى الـذين أخـذوا أخلاقهـم وديـانتهم عـن سـلطة خارجيـة كانـت أعلـى منهم – وهي سلطة يقوم العلـم حاليـاً بتـدميرها – فهـذا لا يعـني أن انعدام كفاءة الكثيرين هو من ابتكارات الديمقراطية.

لنأخذ مثلاً لذلك هـو الاهتمـام الحـالي في التقنيـة وهيمنـة "النـوع الأمريكـي" من خلال التقنيـة. لا يمكـن القـول كمـا أظـن أن مجـرد غيـاب التقنيـة ـ أي الوسـيلة والطرائـق الذكيـة لتـأمين النتـائج ـ هـو بحـد ذاتـه علامـة علـى حـضارة مرغوبـة جوهريـاً. ولـيس مـستغرباً أيضاً بأن اكتشاف حقيقة وإمكانية التقنيـة في كـل فـروع حيـاة البشر يجب أن يكون له أثر ساحر من فوره. إن ما يعرف بالذهنية الأمريكيـة يتميـز بهـذا الاكتـشاف ويتميـز أيضاً بالمبالغـات الـتي تترافق عادة مع فجائية الاكتشاف. هنالك الكثير مما يمكـن أن يقال ضد التقييس وحساب الكم والمعايرة. لكـن اكتشاف تقنية كفوءة يأتي على مستوى مختلف. العـالم لم يعـان مـن غيـاب المثل العليـا والأهـداف الروحيـة في أي مكـان مثلمـا عـانى مـن غيـاب

الوسيلة لتحقيق الأهداف التي يثمّنها عالياً بأسلوب أدبي وعاطفي. والتقنيـة لا تـزال شـيئاً جديـداً في معظـم المـسائل، ومثـل معظـم الأشياء الجديـدة يتلهى المـرء بهـا لفـترة مـن الـزمن لمـا فيهـا وبهـا. ولكنها سـوف تـستعمل لغايات خـارج إطارهـا أحيانـاً، وأعتقـد أن الاهتمام بالتقنية هو الشيء الواعد أكثر من غيره في حضارتنا، وهـو الـشيء الـذي سـوف يحطـم في نهايـة المطـاف الـولاء والتفـاني للتقيـيس الخـارجي ولمثـل الكـمّ الهائـل. والـسبب في ذلـك أن تطبيقاتها لم تأخذ بعداً كبيراً للآن، وأن الاهتمام بها لا يزال إلى حـد كـبير اهتمـام أقليـة لفائـدة الأكثريـة، بمعنـى أنـه اهتمـام المشاهدة وليس تبني استعمالها. لكن التقنيـة في نهاية المطـاف لا ترمز إلا إلى انعتاق الفردية، وهو انعتاق على مقياس أكبر وأوسـع كثيراً مما حصل في الماضي.

غـير أن فراينفلـز Freienfels في توقعاتـه الأكثـر تفـاؤلاً بالمستقبل الذي يمكن أن نكون سـائرين إليـه يوجـه الاهتمـام إلى الحقيقة القائلة بـأن فقـر الفـرد مترافـق دومـاً وحتـى الآن مـع إثـراء موارد الجماعة. وهو يقول إن المجتمع الراهن، بمجموعـه، موسـوم بقوة تهيمن على الطبيعة وبمورد فكري وطاقة أكبر من تلك التي كانت لدى إنسان أثينا وإنسان عصر النهضة. فلماذا لا يعمل هـذا الثـراء الجمعـي علـى التـوازي في سـبيل رفـع مـستوى حيـاة الأفـراد؟ لكنـه لا يطـرح هـذا الـسؤال. وفي رأيـي إن عـدم أخـذ ذلـك بنظـر الاعتبار يشكل الإخفاق الرئيسي للنقاد وطنيين كانوا أم أجانب.

ماديتنا ودأبنا على كسب المال وعلى استمتاعنا بأوقاتنا ليست أشياء في ذاتها. بل هي نتاج حقيقة كوننا نعيش في ثقافة المال، وحقيقة أن تقنيتنا وما لدينا من تكنولوجيا هي كلها تحت سيطرة مصلحة الربح الخاص. وهنا تكمن عيوب حضارتنا الخطيرة والأساسية، ويكمن مصدر شرور ثانوية ومحرضة يوجه لها الكثير من الاهتمام. فالنقاد يتعاملون مع الأعراض وآثارها. وما تهرّبُ النقاد أنفسهم سواء كانوا من هذه البلاد أو من خارجها من الأسباب الاقتصادية الأساسية في رأيي إلا دلالة على سيطرة التراث الأوروبي القديم، بما فيه من إهمال للجسد وللأشياء المادية والاهتمامات العملية. كما أن تطور هذا النوع الأمريكي، طبقاً لما يقوله النقاد، هو نفسه تعبير عن حقيقة كوننا نحتفظ بهذا التراث وذلك النظام الاقتصادي القائم على المكاسب الشخصية الذي إليه يستند، لكننا بالوقت نفسه حققنا تطوراً مستقلاً في الصناعة والتكنولوجيا لا يمكن وصفه إلا بأنه تطور ثوري. وعندما يتعامل النقاد عندنا بهذه القضية بدلاً من تفاديها واجتنابها فإن ثمة شيئاً ما يجري حقاً.

وإلى أن يتم التصدي لهذه القضية سوف يبقى ويستمر اضطراب حضارة منقسمة على نفسها. إن التطور الهائل الذي يصفه نقادنا الأوروبيون بأنه أغرق الفردية، ما هو إلا نتاج عصر الآلة، وهو بشكل ما سوف يمتد لجميع البلدان بسبب امتداد تكنولوجيا الآلة. أما نتيجته الآنية فقد كانت دون شك إخضاع

أنواع معينة منه للفردية. وطالما أن الفردية تعني الارستقراطية من النوع التاريخي فإن امتداد عصر الآلة سيكون على ما أظن معادياً للفردية بمعناها التقليدي في جميع أنحاء العالم. لكن النقد اللاذع من نقادنا الأوروبيين يقدم تعريفاً للموضوع الذي تناولناه في الفصل السابق فقط. وغني عن القول إن مشكلة بناء فردية جديدة تكون منسجمة مع الظروف الموضوعية التي نعيش فيها هي المشكلة الأكثر عمقاً في عصرنا.

هنالك "حلان" يعجزان عن الحل. أولهما هو منهجية الاجتناب والتفادي. وقد اعتمد هذا المسار بحسب ما هو مفترض بأن النوع الوحيد والصحيح للفردية هو ذلك النوع الذي استمر بقاؤه وحفظناه منذ ما قبل عصر الآلة والمجتمع الديمقراطي الذي أسسه. أما المسار المتمم لمنهجية التهرب فهو المسار الناشئ عن الفرضية بأن الحالة الراهنة حالة نهائية، وبأنه يقدم لنا شيئاً نهائياً ومحدوداً. وطالما أنه مسار يعامل على أنه مؤقت ومتحرك، وعلى أنه مادي ينبغي التعامل معه في تشكيل ناتج فيما بعد، وطالما أنه يعامل أيضاً على أنه مشكلة فهو يبقى مجرد فكرة لحل يكون أصيلاً وهاماً. ولعلنا نتخذ الصيغة التي قدمها النقاد الأوروبيون على أنها وسيلة لتنمية وعينا لظروف معينة للمشكلة. والمشكلة التي ينظر إليها بهذا المفهوم تعتبر أساساً مشكلة خلق فردية جديدة لها أهميتها في الظروف الحديثة مثلما كانت القديمة بأفضل صورها لزمانها ومكانها. فالخطوة الأولى لمزيد

من تعريف هذه المشكلة تكمن في إدراك العصر الجمعي الذي دخلناه فعلاً. وعندما يتم إدراك هذا الأمر نجد القضية تعرّف ذاتها بأنها استخدام واقع حضارة الشركات لإثبات صحة ولتجسيد العنصر الأخلاقي المميز في النسخة الأمريكية للفردية ألا وهي المساواة والحرية اللتين يتم التعبير عنهما ليس فقط خارجياً وسياسياً بل وأيضاً من خلال المشاركة الشخصية في تطوير ثقافة مشتركة.

الفصل الثالث

الولايات المتحدة "شركة محدودة"*

لم يمض زمن طويل منذ أن اعتاد المراقبون لمشهدنا الوطني من أمريكيين وأجانب يلخصون ظواهر حياتنا الاجتماعية تحت عنوان "الفردية". بعضهم تعامل مع هذه الفردية المزعومة على أنها إنجازنا المميز، لكن بعض النقاد قالوا إنها مصدر تخلفنا وعلامة كوننا في وضع غير متمدن نسبياً. واليوم نجد كلا هذين التفسيرين سخيفاً غير مناسب وقديماً بالياً عفا عليه الزمن. فالفردية لا تزال قائمة ومستمرة، تكاد تكون شعاراً لنا، وهنالك محاولات لجعلها "صرخة الحرب"، وعلى وجه الخصوص عندما يستعان بها عند الاعتراض بهدف إلغاء تنظيم حكومي لأي شكل من أشكال الصناعة سبق وأن كان معفياً من الرقابة

---

* [نشرت لأول مرة بعنوان "الفردية، قديماً وحديثاً" في مجلة New Republic 61 بتاريخ 1930/1/22]

القانونية. حتى في الأحياء الراقية تمتدح الفردية الفظة حيث توصف بأنها مفخرة الحياة الأمريكية. غير أنه لا توجد صلة بين هذه الكلمات والحقائق المتحركة لهذه الحياة.

والحق يقال لا توجد كلمة يمكن أن تعبّر بما يكفي عما يجري على أرض الواقع. "الاشتراكية" لها دلالات سياسية واقتصادية تجعلها غير مناسبة. "الجماعية"* كلمة أكثر حيادية لكنها، هي أيضاً، كلمة حزبية وليست مصطلحاً توصيفياً. ولعل الدور البارز والمتزايد دوماً للشركات في حياتنا الاقتصادية قد يكون مفتاحاً لنا للتوصل إلى وصف مناسب. وقد تستعمل الكلمة في سياق معنى أكثر اتساعاً مما تحمله من معنى تقني قانوني. لهذا قد نقول إن الولايات المتحدة قد انتقلت بشكل مطرد من فردية رائدة مبكرة إلى حالة تتسم بهيمنة الشركات. والنفوذ الذي تمارسه شركات الأعمال في تحديد الأنشطة الصناعية والاقتصادية الحالية يشكل في آن معاً سبباً ورمزاً للنزوع نحو الاتحاد في جميع مراحل الحياة. والاتحادات سواء كانت وفق تنظيم محكم أو غير محكم تعطي تعريفاً لفرص الأفراد وخياراتهم وأفعالهم.

---

* الجماعية Collectivism نظام سياسي اقتصادي للتنظيم يتميز بسيطرة الدولة أو الشعب ككل على جميع وسائل الإنتاج أو النشاطات الاقتصادية. (م.)

لقد أشرت سابقاً إلى أن نمو الشركات القانونية في مجالات التصنيع والنقل والتوزيع والأنشطة المالية يشكل رمزاً لتطور الشركاتية corporateness في جميع مراحل الحياة. لقد ولى وانقضى عصر إخفاق الشركات الاحتكارية. أما الاندماجات الكبرى للشركات فهي ليست الوضع السائد حالياً فحسب بل صارت المشاعر الشعبية تنظر إليها بزهو وافتخار وليس من منطلق الخوف. فأصبح الحجم هو مقياس العظمة حالياً في هذا السياق وفي غيره من المسائل. وليس ضرورياً أن يسأل المرء عما إذا كان الدافع المهيمن هو الفرصة للقيام بمضاربات هي من أجل مكسب شخصي خاص أم لأجل زيادة في خدمة عامة بتكلفة منخفضة. فالدوافع الشخصية لا تعد أسباباً منتجة بالمقارنة مع القوى غير الشخصية. والإنتاج هائل الكم والتوزيع هائل الكم يأتيان حتماً في أعقاب حقبة زمنية هي عصر البخار وعصر الكهرباء. لقد خلقت هذه الأشياء سوقاً مشتركة تبقى أجزاؤه مرتبطة معاً بسبب التواصل البيني والاعتماد البيني، زالت المسافات وتسارع كثيراً زخم الفعل والعمل. فصار تجميع رؤوس الأموال والتحكم المركّز الاستجابات العصرية لها.

صحيح أن السيطرة السياسية ضرورية لكن التشريع لا يستطيع إيقاف الحركة. انظر إلى تلك الحالة من الإلغاء الحميد لقانون شيرمان Sherman لمكافحة الاحتكار Sherman Anti-Trust Act. لقد رأينا كيف أن الصحف والمصانع والمرافق التي

تزود بالإنارة والطاقة وشركات النقل الداخلي والمصارف ومحلات البيع بالتجزئة والمسارح والأفلام السينمائية قد انضمت جميعاً إلى الحركة الهادفة إلى الاندماجات. شركة جنرال موتورز وشركة البرق والهاتف الأمريكية AT&T وشركة الحديد والصلب الأمريكية وكذلك منظومات المتاجر المتسلسلة التي شهدت نمواً سريعاً وتجمعات شركات الإذاعة مع الشركات المسيطرة على المسارح هذه كلها حقائق ووقائع يعرفها الجميع. أما اتحادات السكك الحديدية فقد تباطأ نموها لأسباب سياسية أو لمصاعب داخلية، ولكن لا أحد يشك بأنها هي أيضاً سائرة على هذا الدرب، إنما لكي تكون السيطرة السياسية فعالة يجب أن تتخذ شكلاً إيجابياً بدلاً من الشكل السلبي.

وهذا أمر ضروري ذلك أن القوى العاملة على الأرض في هذا الحراك أكثر عدداً وأشد تعقيداً من أن تتوقف عن العمل بأوامر من التشريعات. وهنالك أيضاً بالإضافة إلى أشكال التهرب المباشر من القانون وسائل شرعية عديدة تجعل الحركة تسير قدماً إلى الأمام. تشابك المديريات والشراء البيني للأسهم من قبل الأفراد والشركات والتجمع تحت مظلة الشركات القابضة، ومنح الشركات ممتلكات تكفي للتأثير في السياسات تخدم الغاية نفسها كما الاندماجات المباشرة بين الشركات. لقد قيل في مؤتمر للمصرفيين عقد مؤخراً بأن ثمانين بالمائة من رؤوس

أموال جميع مصارف هذا البلد هي الآن في أيدي اثنتي عشرة شركة مالية. لهذا مما لا شك فيه أن السيطرة الافتراضية للعشرين بالمائة الباقية تأتي حكماً نتيجة لذلك فيما عدا بعض المؤسسات التي يمكن إهمالها بسبب ما لها من أهمية محلية فقط.

وهنا يستطيع عالم الاقتصاد أن يضاعف الأمثلة ويعطيها شكلاً أكثر دقة . وأنا لست اقتصادياً والوقائع على أية حال معروفة جيداً ولا تحتاج لتدريب وتجريب مثقل بالتفاصيل، وبخاصة لأن هدفي ينحصر فقط في الدلالة على أثر تطور هذه الشركات في تبدل الحالة الاجتماعية من حال فردي إلى حال شركاتي. أما ردود الفعل على هذا التبدل فهي نفسية ومهنية وسياسية، وهي تطال أفكار العمل والمعتقدات وسلوكنا جميعاً.

وأما ذلك التراجع المحزن للمزارع فلا يمكن أن يفهم جيداً إلا في ضوء التحول الصناعي الذي اجتاح البلاد وكان متزامناً مع "التحول نحو الشركات". والحكومة الآن تتجه إلى محاولة فعل شيء ما في سبيل إقامة تعاونيات للزراعيين، وهو عين ما سبق وفعلته الشركات بفطنتها وذكائها في الأعمال الصناعية والنقل – وكان ذلك مؤقتاً ضد رغبة الحكومة. غير أن أزمة غير المتحدين وغير المندمجين فهي برهان أكيد على مدى كون البلاد محكومة بفكرة الشركات. وهكذا نجد علماء

الاجتماع المهتمين بالحياة الريفية منشغلين الآن كثيراً بالدلالة على تأثير المناطق المدينية – ونقصد بذلك تلك المناطق التي تهيمن عليها التنظيمات الصناعية – عند تحديد الظروف في المناطق الريفية.

وهنالك أيضاً حالات خراب أخرى تحكي القصة عينها. الحرفي الذي كنا نعرفه قديماً والذي يتدرب فردياً بالعمل لدى معلم حرفة ليقوم بعمل له فرديته بدأ يغيب عن الساحة. وسبب فقدانه لعمله هو هذا الإنتاج هائل الكم الذي يقوم به رجال حشروا معاً لتشغيل الآلات بما في ذلك التوزيع الدقيق للعمل. وفي حالات كثيرة يكون قضاء بضعة أسابيع أمام الآلة كافياً ليتعلم العامل كل ما يلزمه من علم أو تدريب. فالإنتاج هائل الكم كان سبباً لتعليم واسع النطاق تكون فيه قدرات الفرد ومهاراته مغمورة لا أحد يدري بها. وفي الوقت الذي نجد الحرفي فيه قد غدا آلة وليس فناناً نرى أولئك الذين لا يزالون يُدعون حرفيين يضعون أنفسهم كما يفعل الكتاب والمصممون بتصرف أعمال منظمة، أو ربما نجدهم مدفوعين إلى الهامش مثل أشخاص بوهيميين غريبي الأطوار. رب قائل يقول إن الفنان باق في كونه القوة الباقية للفرد لكن الاحترام الذي كانت مهنته تلقاه اجتماعياً في هذا البلد يشكل مقياساً لدرجة قوته. أما وضعية الفنان في أي شكل للحياة الاجتماعية فهي التي تشكل مقياساً منصفاً لحالته الثقافية. لكن وضع الفنان اللاعضوي في الحياة

الأمريكيـة هـذه الأيـام يعـد دلـيلاً مقنعـاً لمـا يحـدث للفـرد المنعـزل الذي يعيش في مجتمع تتنامى فيه الشـركات والاتحادات.

بيد أن الاهتمام تنبّه مؤخراً لظاهـرة جديدة في ثقافة الإنسان: ألا وهـي طغيـان ذهـن الأعمـال بمـا لديـه مـن أحاديـث خاصـة ولغـة خاصة، واهتمامات خاصة وتجمعات حميميـة خاصـة يكـون فيهـا رجال لهم هذه الذهنية ومن خلال قدراتهم الجمعية يقررون الاتجاه العـام للمجتمـع عمومـاً كمـا يقـررون حكـم المجتمـع الـصناعي ولديهم نفوذ سياسـي أكبر من نفوذ الحكومة ذاتهـا. لـست مهتمـاً في هذا المقام بقوتهم الـسياسية. إنمـا الحقيقـة الهامـة في موضوعنا هـذا هـي أننـا الآن لـدينا حالـة شـركاتية وتجمـع ذهـني وأخلاقـي ليس له مثيل في التاريخ ولو أنه الآن بـلا وضـعية رسميـة أو قانونيـة. أبطالنـا الأصـليون هـم الآن أشـخاص مثـل آل فـورد وآل أديـسون الـذين يـشكلون مثـالاً لهـذه الذهنيـة أمـام الـرأي العـام. أمـا النقـاد فقد يستمتعون بالسخرية مـن الروتـاريين Rotarians والكيـوانيين Kiwanians والليونز Lions لكـن هؤلاء الأخيرين قد لا يكترثون لهذه السخرية لأنهم يمثلون ذهنية الشـركات المهيمنة.

لكن تراجع تلك الفردية القديمة والفرد الذي كنـا نعرفـه لا يتبـدى علـى نحـو شـديد الوضـوح كمـا يتبـدى في أوقـات الفـراغ والراحـة وفي حيـاة اللـهو والرياضـة. جامعاتنـا لا تتبـع إلا الحركـة الـسائدة هـذه الأيـام عنـدما تجعـل الرياضـة أعمـالاً منظمـة تنـشأ

وتدار من قبل مدراء يتقاضون أجراً وذلك بروح الجماعية المحضة. وما تشكيل سلاسل المسارح إلا السبب والنتيجة معاً لخراب حياة اللهو المستقلة القديمة التي كانت تحدث داخل بيوت متباعدة. أما الإذاعة والأفلام السينمائية والسيارات فهي كلها السبب في نشوء حياة ذهنية وعاطفية جمعية ومشتركة. وأما الصحافة، فيما خلا بعض الاستثناءات التقنية التي قد نراها في مطبوعات خاصة وبعض أقسام الصحف، فهي لسان حال التسلية لأوقات فراغ عاجلة، وهي تنقل وتعكس تشكل الجماعية الذهنية بطرق واسعة النطاق. والجريمة أيضاً بدأت تأخذ شكلاً جديداً، فهي منظمة وشركاتية.

ومن ناحية أخرى أصبحت الشقق التي نقطنها وكذلك قطارات الأنفاق علامات على تراجع وانتهاك حياتنا الشخصية وعزلتنا. "حقوق" الحياة الخاصة لم يعد لها معنى يمكن تعريفه. فنحن نعيش معرّضين لأكبر طوفان من التأثير بالإيحاء واسع الكم تعرض له أي شعب. فالحاجة لفعل موحد وتلك الحاجة المفترضة لرأي وعاطفة موحدين يقابلها دعاية منظمة. وكيل الإعلانات هو على الأرجح الرمز الأكثر دلالة على حياتنا الاجتماعية الحالية. وهنالك أفراد يعترضون، ولكن لفترة من الزمن في الحد الأدنى، فالعاطفة يمكن أن تُصنع بطرائق هائلة لأجل أي شخص وأي قضية.

نحن لا نقول هذه الأشياء لنأسف عليها ونستهجنها، ولا حتى لكي نوازن بين حسناتها وسيئاتها. إنما نوردها لتكون دلالة على طبيعة المشهد الاجتماعي لدينا، وعلى مدى تشكله وتوجيهه بعوامل شركاتية وجمعية لغايات مشتركة. هذا وقد تزامن مع هذه التبدلات في الذهنية والمكانة الاجتماعية تغييرات أساسية، ولو أنها لم يجر الاعتراف بها، في الأفكار التي بها تُفسر الحياة. ومرة أخرى نقول إن الصناعة تقدم رموزاً تثير الدهشة.

وماذا حل بالمُثُل العليا القديمة للنشاط والنمو؟ لقد تضررت كثيراً الجمعيات الخاصة بالترويج للادخار عند الشباب، إذ أصابها الضرر بمشاعرها عندما حض هنري فورد على التدرج الحر في الإنفاق بدلاً من نسبة مغلقة للادخار الشخصي. وكانت نصيحته هذه متوافقة مع جميع النزعات والميول الاقتصادية السائدة في عصره. لكن الخطو المتسارع في الإنتاج واسع الكم يتطلب المزيد من الشراء. ويتم الترويج لذلك من خلال الإعلان على نطاق واسع، ومن خلال البيع بالتقسيط من جانب وكلاء يتسمون بالبراعة في تحطيم مقاومة البيع. ومن هنا نجد الشراء قد أصبح "واجباً" اقتصادياً متناغماً مع العصر الحالي مثلما كان النجاح والازدهار متناغماً مع عصر الفردية. والسبب في ذلك أن الآلية الصناعية تعتمد على الحفاظ على نوع من التوازن بين الإنتاج والاستهلاك. وإذا اختل هذا التوازن تتأثر الهيكلية الاجتماعية

برمتها ويفقد الازدهار معناه. أما استبدال رأس المال أو توسعته فهو مطلوب الآن أكثر من أي وقت مضى. وأما الادخار عند الأفراد فهو ضئيل وغير كاف لهذه المهمة. رأس المال الجديد يأتي بصورة رئيسية من فائض مكتسبات المؤسسات الشركاتية الكبيرة، ويصبح من غير المفيد إبلاغ الأفراد المشترين بأنه لا يمكن إبقاء عجلة الصناعة تدور إلا من خلال الامتناع عن ملذات الاستهلاك. وهنا تفقد الدعوة القديمة "للتضحية" قوتها. وبالتالي يقال للفرد بأنه من خلال الانهماك بمتعة الشراء الحر يقوم بواجبه الاقتصادي فيحول فائض دخله إلى متجر الشركات حيث يمكن استخدامه بفاعلية كبرى. وهكذا تبتعد الفضيلة عن كونها مجرد نمو وازدهار.

أما التغير المماثل في مفاهيم أحكام النظرية الاقتصادية القديمة فهو، بالطبع، إلزام أرباب العمل بدفع أجور عالية إذ لا يمكن الحفاظ على استهلاك متزايد إلا من خلال زيادة الإنفاق الذي يتسبب في زيادة كبرى في الإنتاج وإلا إذا كان لدى المستهلكين الوسيلة لهكذا إنفاق. الطلب على الاستهلاك عند الميسورين محدود، وعددهم محدود. فقد أصبح شراء الكماليات عند هذه الطبقة من الناس ضرورة وليس رذيلة لأنه يساعد في استمرار دوران عجلة الصناعة والتجارة. ومع ذلك قد يتهم الترف بأنه رذيلة مثلما هي العادات القديمة التي تبرز عند وصف

الاقتصاد في الإنفاق بأنه فضيلة. لكن هذا الاتهام ليس أكثر من ضرب خفيف في الهواء ذلك أنه يتناقض مع حركة الصناعة والتجارة. وعلى أية حال هنالك حد أكيد لاستهلاك الكماليات إضافة لما كان يدعى سابقاً السلع الضرورية من قبل الأثرياء. لكن الطلب الذي يجعل الإنتاج والتوزيع "اهتمامات مستمرة" يجب أن يأتي من عامة الناس، أي العمال وأولئك الذين هم في مواقع ثانوية من سلم الرواتب. ومن هنا نشأ "الاقتصاد الجديد" القائم على فكرة أن الأجور العالية تعني الازدهار الصناعي.

ليس سهلاً، بل يكاد يكون مستحيلاً، إجراء تقييس لأهمية هذا التقييم لتلك المفاهيم الخاصة بالادخار وانخفاض الأجور التي كانت أساسية في المبدأ القديم. فإذا كانت تعبر فقط عن تغير في النظرية الاقتصادية المجردة فلن تكون أهميتها كبيرة. لكن التغير في النظرية هو بحد ذاته انعكاس لتغير اجتماعي لا يكون أقل من تغير ثوري. لكنني لا أعني بقولي هذا بأنني أظن أن "الاقتصاد الجديد" قد تأسس بقوة على أنه حقيقة، أو أن تلك السلسلة اللامتناهية لتسريع الاستهلاك على أوسع نطاق بغية تسريع الإنتاج بأنه لا نهاية له أو أنه منطقي كله. لكن بعض التغيرات لا تسير إلى الوراء. وأولئك الأشخاص الذين تمتعوا بأجور مرتفعة وبمستوى رفيع من الاستهلاك لن يقتنعوا بالعودة إلى المستوى الأدنى. لقد برزت حالة جديدة يتعين علينا أن نأخذها

بنظر الاعتبار دوماً في المستقبل. سوف تحدث حالات من الكساد والركود ، لكن لا ينبغي أبداً أن نتعامل معها مستقبلاً بطريقة اللامبالاة أو على أنها قضاء وقدر مثلما كان حال القبول بها في الماضي. سوف تبدو بمظهر شاذ بدلاً من المظهر العادي، وعلى المجتمع وما فيه من ربابنة الصناعة أن يضطلعوا بمسؤولية كانوا هم والمجتمع سابقاً مستثنين منها. وسوف يتعين على إنجيل الازدهار العام في هذه الحياة أن يواجه اختبارات لم يتعرض لها سابقاً بأن الخلاص في العالم الآخر هو تعويض عن شقاء وبؤس في هذا العالم. و "الازدهار" ليس تلك الحقيقة المضمونة في عام 1930 كما كانت تبدو في نظر الكثيرين في مطلع عام 1929. أما الركود أو الكساد فيجعل المشكلة الناجمة عن تنامي صناعة ومالية الشركات أكثر حدة. إن دخلاً مفرطاً يبلغ ثمانية مليارات في العام سوف يفاقم الوضع الاقتصادي إلا إذا وجد له قنوات منتجة. وهو لا يستطيع ذلك ما لم يتكرس الاستهلاك. وهذا بدوره لن يحدث إلا إذا امتد التنظيم والسيطرة من الإنتاج والتوزيع إلى الاستهلاك. أما البدائل فتبدو توسعاً واضحاً ومحدداً لحالة الشركاتية الاجتماعية يضم المستهلك العادي أو، بخلاف ذلك، معاناة اقتصادية على نطاق واسع.

لقد أشرت قبل قليل إلى أن الأمثلة التي أسوقها بخصوص رد فعل الحالة الشركاتية المتنامية للمجتمع على الفكر الاجتماعي

وعاداته لم تقدم في إطار الاستهجان أو الموافقة. بل قدمت لتستدعي صورة تراجع وهبوط فلسفة الفردية للحياة وتكوين مشروع جماعي مشترك للتعاضد والاعتماد المتبادل يشق طريقه نحو كل زاوية معتمة من زوايا الحياة، شخصية كانت أم فكرية أو عاطفية أو تؤثر في أوقات الفراغ واللهو وأوقات العمل أيضاً، وتكون أخلاقية مثلما هي اقتصادية. ولكن بما أن الهدف كان الدلالة على خراب وفساد التصورات السابقة مع أن تلك التصورات لا تزال مقبولة ومعترفاً بها بصوت عال، فالأمثلة المقدمة تؤكد مزايا التقييس المتنامي والاتساق الواسع النطاق اللذين يستنكرهما النقاد. وعليه فإنه من غير العدل بمكان أن نترك الانطباع بأن هذه المزايا هي القصة الكاملة لتحوّل الحياة الأمريكية إلى حالة شركاتية.

بيد أن الأشياء موضع النقد هي تلك العلامات الخارجية لحركة داخلية تنحو نحو التكامل والتوحد على درجة لم تكن معروفة سابقاً. إن مصطلح "التكيف الاجتماعي" ليس مصطلحاً من باب المديح، ولا هو عملية مرغوبة. بل يتضمن تهديداً بخطر داهم لقيم نفيسة، ويتضمن تهديداً أيضاً لأشياء لا ينبغي أن نفقدها. إنما على الرغم من الكثير من النفاق الذي تحدث عن "الخدمة" و "المسؤولية الاجتماعية" فإنه يؤشر لبداية عهد جديد من التوحد والاندماج. أما ماهية الاحتمالات النهائية وإلى أي مدى

يمكن تحقيق هذه الاحتمالات فهذا سوف يترك للمستقبل. إنما الشيء الضروري للحاضر أن نُفهم الحقيقة القائلة بأننا، مهما اختلفت الظروف والأحوال، نعيش في عصر الشركات.

إن من طبيعة المجتمع وطبيعة الحياة أن تحتوي توازناً للقوى المتضادة. الفعل ورد الفعل متساويان في النهاية ومتناظران. و "التكيف الاجتماعي" حالياً هو عمل آلي وكمّي. فالنظام يظل في نوع من التوازن القلق بفعل التحرك نحو تحفيز مفرط طائش وغير شرعي لدى الأفراد. وإذا قدّر للفوضى والآلية أن تستولدا ذهناً وروحاً، وشخصية متكاملة فينبغي أن يكون ذلك ذكاء وعاطفة وفردية من نوع جديد.

وفي غضون ذلك تبقى اللاشرعية واللانظام (وفي رأيي ليس ثمة الكثير من الإجرامية الخارجية بقدر ما هي عدم استقرار عاطفي وفوضى فكرية) وكذلك التقييس الموحد الجانبين لهذا المجتمع الشركاتي الناشئ. ومن هنا فإني أرى أن المجتمع يحتفظ بتوازنه في المعنى الخارجي فقط. وعندما تصبح الشركاتية شعوراً داخلياً بمعنى عندما تتحقق في الفكر والغاية تصبح نوعية. ومن خلال هذا التغيير يتحقق القانون ليس فقط على أنه حكم مفروض قسراً من الخارج بل في كونه علاقات تربط الأفراد معاً. فالتوازن بين ما هو فردي وما هو اجتماعي سيكون عضوياً. تستثار العواطف ويتم إرضاؤها من خلال العيش العادي، وليس

من خلال انحرافات مفاجئة بغية تأمين هذا الإرضاء الذي حرموا منه في حالة هي ناقصة لم تكتمل لدرجة أنها لم تُقبل داخل عواطف الحب ومع ذلك فهي منتشرة كثيراً لا يمكن الهروب منها، هي حالة تعرّف الفرد بأنه منقسم من داخل نفسه.

الفصل الرابع
الفرد الضائع

ترافق تطور حضارة هي في الظاهر حضارة شركات – أو تكاد تصبح كذلك سريعاً – مع تراجع أهمية الفرد وتغييبه. لكنني في هذا المقام لن أتطرق إلى مدى صحة ذلك في إطار فرص الفرد في الأداء، أو إلى مدى تأثير القوى الاقتصادية ذات التوجه نحو التوحد وتقييدها لمبادرة الفرد وخياراته. إنما يمكن الجزم بأنه قد حصل تضاؤل في مجال قرار ونشاط الكثيرين إلى جانب مغالاة واضحة في فرص التعبير الشخصي للقلة القليلة من الأفراد. ورب قائل يقول بأنه لم يكن يوجد في الماضي طبقة من الأفراد لديها السلطة التي تملكها الآن الأقلية أو الأوليغاركية الصناعية. وقد يقال، من جهة أخرى، إن هذه السلطة التي تملكها القلة القليلة إنما هي مظهر مخادع من وجهة النظر الخاصة بالفردية الحقيقية، أي إن أولئك الذين يسيطرون ظاهرياً

هم في الواقع تحت تأثير قوى خارجية لهم مثل الكثيرين غيرهم، وبأن هذه القوى في حقيقة الأمر تدفعهم بقوة نحو قالب مشترك تكون الفردية فيه مكبوتة.

غير أن ما أقصده بقولي "الفرد الضائع" لا صلة له بهذه المسألة ولذلك ليس ضرورياً الحسم بين هذين الرأيين. بل إن المقصود بهذا القول حقيقة أخلاقية وفكرية لا علاقة لها بأي مظهر من مظاهر السلطة في الأداء. فالشيء الهام هو أن الولاءات التي كانت تشد الناس بعضهم إلى بعض والتي كانت تهيئ لهم الدعم والإرشاد ووحدة النظر إلى الحياة اختفت أو هي في طريقها إلى الزوال وبالتالي صار الأفراد في حالة من الارتباك والذهول. وليس سهلاً أن نجد في التاريخ حقبة من الزمن كالحقبة الحالية اتسمت بفقدان الأهداف الصلبة والأكيدة للمعتقد وللغايات المنشودة من الأداء المتفق عليها. إن استقرار الفردية يعتمد على أهداف ثابتة ومستقرة بها ترتبط الولاءات بقوة. وبالطبع يوجد الآن أصوليون محاربون لأجل عقيدتهم الدينية والاجتماعية. لكن صخبهم هذا ودون غيره برهان أكيد على أن حركة التاريخ تسير على [نشرت لأول مرة في مجلة New Republic 61 بتاريخ 1930/2/5].

غير ما يرضون به. وأما بالنسبة للآخرين فقد أمست الأهداف التقليدية للولاء جوفاء أو مرفوضة علناً، فتراهم

مدفوعين هائمين في بحر لجّي لا مرسى له. فبات الفرد يتأرجح كالنواس بين ماض فارغ فكرياً لا يقوى على تأمين الاستقرار وحاضر شديد الازدحام بالتنوع وهلامي لا يقدر على توفير التوازن أو تحديد وجهة الأفكار والعواطف.

إن الفردية المطمئنة والمتكاملة نتاج علاقات اجتماعية محددة ووظائف وأعمال معترف بها علانية. وإذا اعتمدنا هذا المعيار في الحكم على الأشياء نجد الكثيرين مغمورين بمن فيهم حتى أولئك الذين بيدهم السيطرة، ويقدرون على الوصول في التعبير عن قدراتهم الفردية الخاصة إلى أعلى المراتب. قد يكونون ربابنة الصناعة والمال، ولكن لا يمكنهم أن يكونوا ربابنة أرواحهم – أي معتقداتهم وأهدافهم – حتى يوجد نوع من التوافق في المعتقد إزاء معنى المال والصناعة في الحضارة بمجملها. هم يمارسون القيادة زيفاً، أو إن صح التعبير، بذهن شارد. هم يقودون، ولكن تحت غطاء قوى اقتصادية لا شخصية وغير ذات توجه اجتماعي. ومكافأتهم لا تكمن في ما يفعلون، ولا في موقعهم وعملهم الاجتماعي، إنما في حرف مسار النتائج الاجتماعية نحو المكسب الشخصي الخاص. وهم يتلقون الشهرة والهتاف ويحظون بإعجاب وحسد الجماهير لكن الجمهور مكوّن من أفراد، هم مثلهم ضائعون لا يدركون معنى تأثيراتها الاجتماعية واستخداماتها.

وتفسير ذلك كله كامن في حقيقة مفادها أن الأفعال برغم كونها تستحث نتائج جمعية وشركاتية إلا أنها خارج مقصدها ولا علاقة لها بتلك المكافأة المتمثلة بالرضا الذي يأتي عادة من رضا المجتمع. أعمالهم، بنظرهم ونظر الآخرين، هي أعمال خاصة ومردودها ربح خاص. ولا يوجد رضا أو ارتياح تام حين يوجد هكذا انقسام. ومن هنا تم التعويض عن غياب الإحساس بالقيمة الاجتماعية بتسارع محموم لنشاطات من شأنها أن تزيد الفائدة والسلطة الفردية. صحيح أن المرء لا يملك أن ينظر إلى الشعور الداخلي لأقرانه ولكن إذا كان ثمة درجة عامة من الرضا الداخلي عند أولئك الذين يشكلون الأوليغاركية المالية فإن البرهان للأسف غير موجود. وأما بالنسبة للكثيرين فهم مدفوعون هنا وهنالك بفعل قوى خارجة عن سيطرتهم.

لا شك أن السمة الأكثر بروزاً في حياتنا الراهنة من الناحية الاقتصادية هي انعدام الأمن. إنه لأمر محزن، بل ومأساوي أن نرى الملايين من الناس الراغبين بالعمل لا يعملون، وإلى جانب هذا الكساد الاقتصادي بدوراته المتتالية يوجد جيش قائم دوماً وفي كل حين من الذين ليس لهم عمل نظامي. ليست لدينا المعلومات الكافية حول عدد هؤلاء الأشخاص. لكن جهلنا هذا حتى لو كان بخصوص الأرقام يعد طفيفاً إذا قورن بعجزنا عن إدراك النتائج النفسية والمعنوية لتلك الحالة الخطرة التي تلف حياة حشود ضخمة من الناس. وانعدام الأمن يدخل في العمق ويمتد اتساعاً

أكثر كثيراً من مجرد البطالة. الخوف من فقدان العمل، والخوف من الشيخوخة يخلقان قلقاً وينهشان احترام الذات بطريقة تضر بالكرامة الشخصية. وعندما تكثر المخاوف تتقوض الفردية الشجاعة والقوية. لكن التطور الهائل للموارد التكنولوجية التي كان يفترض بها أن تجلب معها الأمن قد جلبت شكلاً جديداً لانعدام الأمن حيث حلت المكننة محل العمالة. فبدأت اندماجات الشركات وتوحدها التي شكلت علامة لعصر الشركات تجلب القلق في الحياة الاقتصادية لطبقة ذوي الرواتب العليا، وهذه النزعة لا تزال في مرحلتها الأولى. ومن شأن إدراك أن الإخلاص والتفاني في العمل بمهنة معينة وأعمال تجارية معينة لا يضمن مستوى مستقراً للحياة أنه يقلل من شأن احترام العمل ويحفز أعداداً كبيرة من الناس ليجازفوا بطريقة غريبة حمقاء لجمع الثروات التي تجعل الأمن ممكناً، وانظر على سبيل المثال ذلك الانغماس المفرط مؤخراً في البورصات وأسواق الأسهم.

القلق ونفاد الصبر والنزق والعجلة هي صفات طبعت الحياة الأمريكية بطابعها وهي تترافق حتماً مع حالة لا يجد فيها الأفراد دعماً ورضا واطمئناناً في كونهم أعضاء داعمين ومدعومين في كلٍ اجتماعي. وهي دليل أكيد من الناحية السيكولوجية على هذا الشذوذ، وإنه لمن غير المفيد البحث عن تفسير لها من داخل هدف الفرد المدروس، كما أنه من غير المجدي التخلص منها عبر

مناشدات أخلاقية وعظية. لكن ما يعلل هذه الظواهر المرضية واسعة الانتشار هو ذلك الانعدام المؤلم للانسجام بين الأفراد والظروف الاجتماعية التي يحيون فيها. وأما ذلك الولع المحموم لأي شيء ما دام أنه مجرد تغيير فهذا يسبب الذهول وشرود الذهن، مثله مثل صفات نفاد الصبر وعدم الاستقرار والنزق العصبي والرغبة في الإثارة فهذه صفات ليست أصيلة في طبيعة الإنسان. هي شذوذ يستدعي البحث عن تفسير من داخل سبب عميق جداً.

ولا يسعني إلا أن أفسر النفاق الظاهر من هذا المنطلق. نحن لا ينقصنا الإخلاص عندما نؤمن بتكريس أنفسنا للمثل العليا في "الخدمة"، فهي تعني شيئاً. لا أحد من أعضاء نادي الروتاري Rotary الذي اتخذ شعاراً له "الخدمة"، ولا مشروع أعمال كبيرة قد استخدموا هذه الكلمة لمجرد أن تكون عباءة لـ "إنجاز شيء ما" يؤدي إلى كسب مالي. ولكن ثمة من يحتج على ذلك بقوة. أما الانتشار الواسع لهكذا إيمان فهو دليل على وجود شيء من الوظائف الاجتماعية للأعمال إنما يجري التعبير عنه بكلمات فقط لأنه مفقود في الواقع، ومع ذلك نحس بأنه موجود. لو انعكست هذه التراكيب الخارجية التي لدينا والموجودة في النشاط الصناعي في اندماجات عضوية للرغبات والغايات ورضا الأفراد فسوف تختفي الاحتجاجات الكلامية لأن المنفعة الاجتماعية ستكون أمراً واقعاً بحكم الطبع.

يعتقد بعضهم أن نظيراً ذهنياً أصيلاً لهذا المشروع الاجتماعي الخارجي قد بدأ يتشكل فعلاً. ويقال إن عقليتنا السائدة، أو "مفاهيمنا وأيديولوجيتنا" هي "عقلية الأعمال" التي أصبحت للأسف واسعة الانتشار. أليست المعايير السائدة لدينا للقيمة هي تلك المنبثقة عن النجاح المالي والازدهار الاقتصادي؟ ولو جاء الجواب بالإيجاب دون تعليل فعلينا أن نقبل بأن حضارتنا الخارجية قد بدأت توجد ثقافة داخلية مماثلة لها، ولو حاولنا كثيراً الإقلال من جودة تلك الثقافة. والاعتراض بأن تلك الحالة شيء مستحيل، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده، أو بالازدهار المادي وحده، شيء يغري النفس، إنما قد يقال إن ذلك يطرح سؤالاً. والجواب القاطع له هو أن عقلية الأعمال ليست موحدة. فهي منقسمة داخل نفسها، وينبغي أن تبقى كذلك طالما أن نتائج الصناعة في كونها القوة المؤثرة في الحياة هي جمعية ومشتركة، بينما تظل دوافعها ومكافآتها النشطة خاصة بشكل لا يهدأ. فالعقلية الموحّدة، حتى لو كانت عقلية أعمال، لا يمكن أن تتحقق إلا عندما يكون المقصد الواعي وتحققه في حالة انسجام مع النتائج الحاصلة فعلاً. يعبر هذا التوضيح عن شروط مضمونة سيكولوجياً حتى ليمكن وصفها بـ"قانون السلامة الذهنية". أما عن دليل إثبات لوجود هذا الشرخ فهو حاضر في حقيقة مفادها أنه على الرغم من وجود تخطيط كثير للتطور المستقبلي لجهة

الربحية داخل شركات الأعمال الكبرى فإنه لا يوجد تخطيط مماثل ومنسق للتطور الاجتماعي.

لا ريب أن نمو حالة الشركاتية مقيد على نحو اعتباطي. ولذلك فهي تعمل على وضع حدود للفردية وعلى تحميلها أعباء وعلى إرباكها وبالتالي تغييبها. وهي تزداد خارجياً أكثر مما تجسده داخلياً في حياة آمنة ومنظمة. وقد جعلت المناطق الريفية في حالة ركود في حين جلبت إلى المدينة حركة مفرطة لا تهدأ. يكمن هذا التقييد لحالة الشركاتية في كونها تبقى على مستوى المال. فالناس يتجمعون على جانب واحد من خلال الاستثمار في الشركة المساهمة نفسها، ومن جهة أخرى هم يتجمعون من منطلق أن الآلة تفرض الإنتاج واسع الكم لكي يحصل المستثمرون على الأرباح. والنتائج تؤثر في المجتمع بأسره بكل مراحله. لكن هذه الحالة غير عضوية مثلما تكون الدوافع البشرية النهائية العاملة خاصة وأنانية. لذلك نجد الفردية الاقتصادية في الدوافع والأهداف تستتر تحت الآليات الراهنة للشركات وتغيّب الفرد.

يتجلى فقدان الفردية في أوضح صوره في المنطقة الاقتصادية لأن حضارتنا حضارة تسود فيها الأعمال. وهذه الحقيقة تتجلى بوضوح أشد عندما ننظر إلى المشهد السياسي. وقد لا تنفع الكلمات عند الإسهاب في الحديث عن خلو البرامج السياسية

والأحزاب والقضايا السياسية الحالية من أي معنى مفيد. الشعارات القديمة البالية لا تزال هي نفسها تتردد لكن هذه الكلمات تبدو عند القليل من الناس تحمل معاني حقيقية. ولعلها حقيقة واضحة جداً لا جدال فيها بأن السياسة لدينا بمجملها ، ومن حيث كونها بعيدة عن الاستغلال غير المنظور لصالح الفوائد المالية لبعض الجماعات هي الآن في حالة من الفوضى والارتباك، والقضايا ترتجل من أسبوع لأسبوع مع تبدل دائم في الولاءات. ويستحيل على الأفراد أن يجدوا أنفسهم سياسياً بكل فاعلية وبكل ثقة ويقين في ظل هكذا ظروف. والنتيجة الطبيعية لا مبالاة سياسية تقطعها أحاسيس وتشنجات متواترة.

لا شك أن انعدام الأهداف الآمنة للولاء والتي بدونها يجد الفرد نفسه ضائعاً أمر مثير للدهشة على نحو خاص في حالة الفرد المتحرر الليبرالي. فقد تميزت ليبرالية الماضي بامتلاك برنامج وعقيدة فكرية محددة، وهذا ما يجعلها مميزة عن الأحزاب المحافظة التي لم تكن بحاجة إلى صياغة رأي خاص يكون أكثر من مجرد الدفاع عن الأشياء القائمة. لكن الليبراليين، خلافاً لذلك، عملوا على قاعدة فلسفة اجتماعية مدروسة، أو نظرية في السياسة محددة ومترابطة بما يكفي لتسهل ترجمتها إلى برنامج سياسي يمكن تنفيذه. أما ليبرالية هذه الأيام فليست أكثر من مزاجية في الفكر تسمى تسمية مبهمة بأنها ذات تطلع نحو المستقبل، لكنها لا تدري على وجه

اليقين أين تنظر أو إلى ماذا تصبو. وهذه الحقيقة في نظر الكثيرين، بالإضافة إلى نتائجها الاجتماعية، مأساة بحق وحقيق. وربما تكون هذه المأساة بعيدة عن وعي الجماهير لكنها تبرز على أرض الواقع في هذا الاندفاع الهائم بلا هدف في الوقت الذي يكون فيه من هم الأكثر فكراً ودراية مضطربين. والطبيعة البشرية لا تكون ذاتية الامتلاك إلا حين يكون لديها أهداف ترتبط بها.

لا أعتقد أنه من الخيال في شيء أن نربط قوميتنا المنتبهة والجشعة بالحالة التي ذهبت فيها الشركاتية بعيداً إلى درجة أنها فصلت الأفراد عن روابطهم وولاءاتهم المحلية القديمة، لكنها لم تمض قدماً بما يكفي لتهيئ لهم مركزاً ونظاماً جديدين للحياة. الأمم الأكثر عسكرة تضمن ولاء رعاياها ليس عن طريقة القوة المادية بل من خلال قوة الأفكار والعواطف. وهي تنمّي مُثُل الولاء والإخلاص والتضامن والتفاني المشترك في سبيل قضية مشتركة. أما الصناعة والتكنولوجيا والتجارة الحديثة فقد أوجدت أمماً حديثة في شكلها الخارجي. فالجيوش والأساطيل توجد لحماية التجارة ولتأمين السيطرة على المواد الخام ولتهيمن على الأسواق. والناس لا يضحون بأنفسهم لهدف تأمين مكسب اقتصادي لأقلية من الأفراد إذا كانت الظروف في أذهانهم على هذا الشكل البسيط المكشوف. لكن الطلب المحبط لحالة من التعاونية الأصلية والتضامن المتبادل في الحياة اليومية يجد منفذاً له في

عاطفة قومية. لاسيما وأن لدى الناس فطرة الشفقة تدفعهم نحو المغامرة بالعيش والنضال معاً وإن لم تعمل الجماعة على تغذية هذا الدافع يومياً، فإن ذاك التصور الرومانسي يقدم صورة لأمة عظيمة يكون الجميع فيها موحدين. وإن عجزت واجبات السلام البسيطة عن إقامة حياة مشتركة عندئذ تعبأ العواطف والأحاسيس خدمة لحرب تقوم هي عينها بتقديم صورة زائفة مؤقتة لها.

لم أتطرق حتى اللحظة إلى ما قد يعتبره الكثيرون الشيء الأكثر خطورة والأشد وضوحاً من كل أشكال ضياع الأهداف الآمنة للولاء، ألا وهو الدين. ربما يكون سهلاً أن نبالغ في مدى هذا التراجع الظاهري للتدين كالذهاب إلى الكنيسة أو الحصول على عضوية في الكنيسة وهكذا. ولكن ليس بالإمكان أن نبالغ في تراجعه من حيث كونه قوة توحيدية وتوجيهية هامة في أفكار الناس ووجدانهم. قد يكون ثمة من يشكك فيما يقال بأن الدين كان تلك القوة المركزية الفاعلة في عصور قديمة مضت وصفت بعصور التدين. ولكن لا يمكن التشكيك قط بأنه كان الرمز لوجود ظروف وقوى أسست لوحدة الناس وكان المركز الذي تتجمع فيه آراء الناس في الحياة. فالدين في الحد الأدنى جمع معاً في رموز مشتركة وعظيمة الأهمية معنى واحداً للأهداف التي كان الناس مرتبطين بها ومنتمين لها فوجدوا الدعم والثبات في نظرتهم للحياة.

لكن الدين الآن لا يعطي هذه النتيجة. فقد نتج عن الطلاق بين الكنيسة والدولة طلاق بين الدين والمجتمع. وحيث لم يصبح الدين مجرد ممارسة خاصة أصبح في أحسن الأحوال مسألة طوائف ومذاهب منقسمة على بعضها باختلافات عقائدية، ومتحدة داخلياً بتعاليم ومعتقدات لها أصلها التاريخي فقط ومعنى ميتافيزيقي بحت وإن لم يكن ذلك فهو طقسي. لا يوجد رباط لوحدة اجتماعية مثل ذاك الرباط الذي وحد الإغريق والرومان والعبرانيين وأوروبا الكاثوليكية في العصور الوسطى. وهنالك من يدركون ما الذي يبشر به فقدان الدين في كونه الرباط الموحِّد الذي يجمع الناس معاً. كثيرون هم من لا يجدون الأمل بعودة الدين والتدين من خلال تطوير قيم اجتماعية يتمسك بها بقوة تصور الأفراد وعواطفهم. هم يرغبون بتبديل اتجاه العملية فيشكلون الرباط الاجتماعي لوحدة وانتماء من خلال إعادة استيلاد روح الفرد المنعزلة.

وبمعزل عن حقيقة أنه لا يوجد إجماع في الرأي حول ماهية الحالة الدينية التي سيتمركز الرأي حولها فهذا القول يعني وضع العربة أمام الحصان. فالدين ليس جذوراً للوحدة بقدر ما هو الزهرة والثمرة. إن مجرد المحاولة لتأمين التكامل للفرد ومن خلاله المجتمع وذلك من خلال الرعاية والتشجيع المستمرين للدين فهي بذاتها برهان يؤكد مدى ضياع الفرد بسبب انفصاله عن القيم الاجتماعية المعترف بها. فلا عجب إذن إن رأينا أن الدعوة إن

لم تتخذ شكل أصولية عقائدية فهي تنحو لأن تنتهي على شكل تعبّد خاص لا يهتم بالشؤون العملية أو إيماناً سرياً بقوى خفية. معنى الكمال الذي هو جوهر الدين لا يمكن تنميته وإدامته

إلا من خلال العضوية في مجتمع توصل إلى درجة معينة من الوحدة. أما محاولة رعايته وتشجيعه في الأفراد أولاً، ومن ثم مدّه بحيث يشكل مجتمعاً موحداً عضوياً فهذا ضرب من الخيال. والانغماس في هذا

الخيال يصيب بالعدوى تأويلات وتفسيرات للحياة الأمريكية كما نجدها اليوم، ولنضرب مثلاً لها كتاب "إعادة اكتشاف أمريكا The Rediscovery of America لوالدو فرانك Waldo Frank[2]. فهو كتاب يصف حنيناً وليس مبدأ للبناء.

وأما القول بأن المشهد الخارجي بات هيولياً مشوشاً بسبب الآلة، وهذا مبدأ الهيولة، وبأنه سيبقى كذلك حتى يعمل الأفراد على إعادة تشكيل الكمال من داخلهم فهو ببساطة قلب للحالة

---

[2] بعد أن يقدم عرضاً ذكياً لانحلال التركيبة الأوروبية يضيف المؤلف والدو فرانك قائلاً "إن حاجة الإنسان للنظام وصنعه لهذا النظام هي علومه وفنه وديانته، وهذه كلها يشار إليها بأنها المعنى الأولي للنظام الذي ندعوه الذات." وقد نسي تماماً حقيقة أن هذا المبدأ لأولية الذات هو على وجه الدقة رد فعل ذاك العصر الرومانسي الذاتي لذلك الانحلال الذي صوره والذي لا يكمن معناه إلا في ذلك الانحلال. (حاشية المؤلف)

الحقيقية للأشياء. المشهد الخارجي، إن لم يكن منظماً بالكامل، فهو منظم نسبياً في الشركاتية التي أنتجتها الآلة والتكنولوجيا، والإنسان الداخلي هو تلك الغابة التي لا يمكن إخضاعها للنظام إلا إذا انعكست قوى التنظيم التي تفعل فعلها في الأشياء الخارجية وفي أنماط مماثلة في الفكر والخيال والعاطفة. المرضى لا يبرؤون بفعل مرض أصابهم والأفراد المفككون لا يحققون الوحدة إلا إذا اتحدت الطاقات المهيمنة لحياة الجماعة لتشكل عقولهم. ولو كانت هذه الطاقات في الواقع مجرد سعي لكسب مالي خاص فسوف يكون الحال ميئوساً منه حقاً. لكن هذه الطاقات تكونت بفعل فن جماعي للتكنولوجيا يعمل الأفراد فقط لحرفه عن مساره لغايات خاصة. وهنا توجد بدايات لنظام موضوعي قد يحصل الأفراد من خلاله على تأثيرات تلك الطاقات.

لم نأت بعد على ذكر الإشارات الواضحة لتفكك الفردية بسبب الإخفاق في إعادة بناء الذات بحيث تواجه الواقع الراهن للحياة الاجتماعية. في إحصاء أجري مؤخراً شارك فيه قادة الرأي حول الحاحية المشاكل الاجتماعية الحالية، ووضعية القانون والمحاكم تبين أن عدم احترام القانون والجريمة تصدرت القائمة وبفارق كبير عما يليها. ونحن الآن أكثر توكيداً على هذا القول

من كيبلنغ Kipling* حين كتب: الناس الذين يضعون "قوانين يهزأون بها ويزدرونها ثم يهزأون ويزدرون قوانين يضعونها." نحن نجمع بين حماسة لا مثيل لها في التاريخ لسن القوانين وبين عدم اكتراث مقصود أو غير مقصود بها عندما تكون مدونة في كتب التشريعات. نعتقد – إذا أخذنا بما نشاهده من أعمال التشريع – أننا نستطيع أن نغرس الأخلاق في النفوس بالقانون (وانظر مثلاً التعديلات الكثيرة جداً الطارئة على الأشياء الممنوعة) وننسى أن القوانين كلها ما خلا تلك الناظمة للإجراءات الفنية ما هي إلا تسجيل لعادات اجتماعية قائمة وعادات وغايات أخلاقية مرافقة لها. لكنني لا يسعني إلا أن أعتقد أن هذه الظاهرة عرض من الأعراض وليست سبباً. وهي التعبير الطبيعي عن فترة من الزمن شهدت تغيرات في بنية المجتمع فككت الروابط والولاءات القديمة. ونحن نحاول أن نصلح هذا التراخي والانحلال الاجتماعيين من خلال سن قوانين بينما نجد التفكيك الحقيقي يتكشف أمامنا على شكل مخالفات للقوانين تكشف عن الطبيعة الصنعية لهذا النهج في تأمين وحدة المجتمع.

* جوزيف ريدارد كيبلنغ Josef Rudyard Kipling (1865 – 1936) شاعر وروائي انكليزي حائز على جائزة نوبل للأدب عام 1907 ومن أشهر رواياته The Jungle Book (1894) ورواية Kim (1901). (م.)

قد تحتاج لمجلدات ضخمة أية محاولة لجمع المقالات وافتتاحيات الصحف التي كتبت حول التراخي الحاصل في دستور الأخلاق التقليدية. هذا وقد ظهرت في الآونة الأخيرة حركة استرعت اهتمام الرأي العام وأطلقت على نفسها اسم "الإنسانية Humanism لسبب ما، وهي حركة تنادي بأن الاعتدال والتحفظ كما يمارسه الأفراد بمحض اختيارهم الأعلى هما الحل الوحيد لكل العلل التي نعرفها وهي تجد أن المدرسة الطبيعية كما يمارسها الفنانون والآلية التي يعلمنا إياها الفلاسفة الذين يأخذون بعض معلوماتهم من العلوم الطبيعية وحطموا القوانين والأوامر الداخلية الوحيدة هي وحدها التي تجلب النظام والولاء. ولشد ما يسعدني أن أكون قادراً على الاعتقاد بأن لدى الفنانين والمثقفين مثل هذه القوة، ولو كانت لديهم، وبعد أن يستخدموها لجلب الشر إلى المجتمع قد يغيرون جلدتهم ويجلبون الشفاء له من العلل. لكن حس الواقع وحس الدعابة يمنعان قبول هذا الاعتقاد. فالأدباء والمفكرون الأكاديميون هم الآن، وأكثر من أي وقت مضى، النتيجة وليس السبب. هم يتأملون ويتحدثون عن التفكك الذي أنتجته طرائق العيش الجديدة التي بدورها كانت نتاج أشكال جديدة للصناعة والتجارة. وهم شهود على اللاواقعية التي تخطت النواميس التقليدية في مواجهة أثر القوى الجديدة، وهم على نحو غير مباشر ينادون بالحاجة إلى جميعة جديدة تجمع الطريحة والنقيضة في

الديالكتيك. لكن هذه الجميعة لا يمكن أن تكون إنسانية فحسب إلا إذا أخذت في الاعتبار الظروف الجديدة وحولتها إلى وسائل لحياة إنسانية حرة. لا أرى سبيلاً لـ "كبت" أو إرجاع الثورة الصناعية ونواتجها للوراء. وبسبب غياب هكذا كبت (والذي لا يمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً إلا إذا حدث) لن تكون الحاحية أي كبت داخلي عبر ممارسة الإرادة الشخصية العليا، أياً ما تكون، إلا صدى لا طائل له لفردية قديمة انهارت كلياً.

هنالك مراحل عدة في الحياة توضح لكل من يريد أن يفكر في ضوء الواقع وليس الألفاظ تلك اللاعلائقية المطلقة للعلاج المقترح للظروف الحقيقية. وليأخذ المرء الوضع الحالي للهو، للسينما، للإذاعة، وللرياضات البديلة المنظمة، ويطرح السؤال كيف يمكن مواجهة هذا التفجر القوي الذي فيه استخدمت مصادر التكنولوجيا في سبيل الربح الخاص من خلال تطبيق كوابح داخلية. ولعل المثال الأكثر استرعاء للاهتمام ماثل في التفكك الناتج عن التغيرات في الحياة الأسرية والمعنويات المتعلقة بالجنس. لم تكن النية البشرية المقصودة التي قوضت الأسرة التقليدية من حيث كونها مركز الصناعة والتعليم، ومن حيث كونها محط تعليم الأخلاق هي التي أوهنت المؤسسة القديمة للزواج الدائم. وما الطلب إلى الأفراد الذين يعانون من تبعات ذلك التقويض العام وذاك الوهن بأن يضعوا حداً لتلك التبعات من خلال أفعال نابعة عن إرادة واختيار شخصيين إلا نوعاً من إيمان

بسحر الأخلاق. وأما استعادة أفراد قادرين على الضبط الفعال الثابت للنفس فلا يمكن أن يكون إلا إذا وجد أولاً عمل ضئيل لقوة الإرادة في مراقبة الواقع الاجتماعي القائم وتوجيهها طبقاً لإمكاناتهم.

ثمة أمثلة كثيرة صارخة وساطعة تتحدث عن طوفان من أفراد تحرروا من روابط كانت سابقاً توفر نظاماً ودعماً لحياتهم. هي ساطعة جداً حتى لتكاد تعمي أبصارنا فلا نرى الأسباب التي أفرزتها. فالأفراد يتلمسون طريقهم من خلال مؤسسات لم تعد توجههم ولا تزودهم بالإرشاد اللازم. المثل والمعتقدات التي تحتل أعلى المواقع في وعيهم لا تمت بصلة إلى المجتمع الذي فيه يعملون خارجياً والذي يسبب لهم ردود فعل دائماً. لقد ورثوا أفكارهم ومعاييرهم من عصر ولّى وانقضى، وأذهانهم من حيث تقبلها عن وعي لمبادئ وطرائق التفسير والتأويل، لا تتآلف مع ظروف الواقع. إن هذا الانقسام العميق هو سبب الذهول وشرود الذهن.

لن يجد الأفراد أنفسهم إلا إذا صارت أفكارهم ومثلهم العليا منسجمة ومتناغمة مع واقع العصر الذي يعيشون ويعملون فيه. لكن التوصل إلى هذا التناغم ليس بالأمر اليسير. وهو أكثر سلبية مما يبدو. لو استطعنا أن نكبت المبادئ والمعايير التي لا تعدو كونها موروثة، ولو استطعنا التخلص من آراء ليس لها علاقة معيشية في المواقف التي نعيشها، فإن القوى غير المعترف

بها التي تؤثر فينا الآن لا شعورياً ودون توقف للحظة، ستحظى بفرصة تتيح لها بناء الأذهان طبقاً لأنماطها، وبالتالي سيجد الأفراد أنفسهم مالكين لأهداف يرتبطون بها بقوة الخيال والعاطفة.

لكن قولي هذا لا يعني أن مسيرة إعادة البناء سوف تستمر آلياً. فالتمييز مطلوب بغية اكتشاف معتقدات ومؤسسات تهيمن بسبب العادة وقوة العطالة، وبغية اكتشاف واقع متحرك في الحاضر. فمثلاً يتعين على الذكاء أن يميّز توجهات التكنولوجيا التي تنتج شركاتية جديدة من تلك الموروثات القادمة من فردية سادت في حقبة ماضية تعمل على إيقاف وتقسيم عمل الديناميكية الجديدة. ليس سهلاً أن نرى الفردية إلا من حيث كونها قوالب مشتقة من قرون مضت. فالفردية عرّفت بأفكار المبادرة والاختراع المتوفرة بكثرة والمكبلة بمكاسب اقتصادية خاصة وحصرية. وطالما بقي هذا المفهوم مالكاً لأذهاننا فسوف نفسر المثل العليا لتناغم رغباتنا وأفكارنا مع الظروف الاجتماعية الراهنة على أنها استسلام ومهادنة. حتى أنها سوف تفهم على أنها ترمز إلى عقلنة شرور المجتمع القائم. إن الاسترداد الثابت للفردية يشكل وسيلة لإلغاء الفردية السياسية والاقتصادية القديمة، وهذا الإلغاء يحرر الخيال ويشكل مسعى لعمل يجعل مجتمعاً تهيمن عليه الشركات يقدم ثقافة حرة لأفراده. ومن خلال

المراجعة الاقتصادية وحدها يمكن للعنصر السليم للفردية القديمة، ألا وهو تكافؤ الفرص، أن يصير واقعاً.

ودور الحكمة أن تلحظ المعنى المزدوج للأفكار مثل "القبول". فهنالك قبول للفكر، ويرمز إلى مواجهة الحقائق كما هي. وهنالك قبول آخر هو قبول العواطف والإرادة، وهذا يتضمن التزام الرغبة والمجهود. وهذان النوعان بعيدان كل البعد عن التشابه، فالقبول بحسب المعنى الأول هو شرط مسبق لكل رفض ذكي للقبول بحسب المعنى الثاني. وهنالك مظهر تنبؤي للملاحظة، فنحن نرى معنى ما هو موجود فقط عندما نتنبأ بالنتائج التي تنجم عنه. وعندما يكون الموقف مشوشاً ومنقسماً داخل نفسه كما هو حال الوضع الاجتماعي القائم يكون خيار الملاحظة معقداً. وعندما يرى المرء نزعات مختلفة ونتائج محتملة مختلفة يخرج التفضيل حتماً من واحد إلى الآخر. ولأن التسليم بالفكر يجلب معه التمييز الذكي والخيار الذكي فهذه هي الخطوة الأولى للخروج من حالة التشويش والارتباك والخطوة الأولى نحو تكوين تلك الأهداف الخاصة بالولاء التي منها قد تنمو فردية مستقرة وفعالة. وربما قد نقوم بمعجزة جعل المحافظة ذات صلة وذات فكر. فهي بالتأكيد الشرط المسبق لليبرالية المعتمدة.

الفصل الخامس

نحو فردية جديدة*

يبدو أن ثقافتنا المادية، كما يصفها علماء الانثروبولوجيا، توشك أن تصبح ثقافة جمعية مشتركة وثقافة شركات. ومن جهة أخرى، لا تزال ثقافتنا الأخلاقية، إلى جانب إيديولوجيتنا، مشبعة بقيم ومُثُل للفردية ناشئة من عصر ما قبل العلوم والتكنولوجيا. جذورها الروحية تمتد إلى ديانة سادت في العصور الوسطى كانت تؤكد على الطبيعة المطلقة لروح الفرد فكانت هذه الروح ومصيرها المحور الذي تدور حوله دراما الحياة. وكانت المفاهيم المؤسساتية والقانونية موضوعة في إطار عصر الإقطاع.

* [نشرت لأول مرة في مجلة New Republic 62 بتاريخ 1930/2/19]

هـذه الفرديـة الأخلاقيـة والفلـسفية سـبقت نـشوء الـصناعة الحديثة وعصر الآلة. فكانت البيئة التي فيها عملت هـذه الأخيرة. وأما خضوع الفرد الظاهري لمؤسسات قائمة فهو في معظم الأحيان يبعد عن الأنظار ذلك الوجود الحيوي لفردية راسـخة في الأعماق. إنما حقيقة أن المؤسسة المسيطرة كانت الكنيسة فهذا يذكّرنا بأن غاية وجودها تتمثل في تأمين خلاص الفرد. لكـن القـول بـأن هذا الفرد كان في بداية تكوينه روحاً، وبأن الغاية التي تخدمها هذه المؤسسة قد أرجئت إلى حياة أخرى أبدية فهذا يخفي فردية كامنة عن الإدراك العصري. أما مادتها، في عصرها، فكانت كامنة في السمة الروحية الخالدة لروح الشخص، لكن قوة المؤسسات القائمة انطلقت من كونها الوسيلة الضرورية لتحقيق غاية الفرد العليا.

هـذا، وقـد صـنعت المرحلـة الأولى للثـورة الـصناعية تحـولاً عظيماً. أحدثت تحولاً دنيوياً وعلمانياً لمهنة الفرد، وميّعت مفاهيم الخاصية الساكنة للإقطاعية من خلال انتقال التأكيد من الزراعة إلى الصناعة. ومع ذلك بقيت على حالها فكرة أن التملك والمكافأة فرديتان في جوهرهما. صحيح أنه توجد عناصر متنافرة في النسختين القديمة والمتأخرة للفردية. لكن اندماج الرأسمالية الفرديـة والحقـوق الطبيعيـة والأخـلاق القائمـة علـى قـيم وسمـات فردية بقي وبتأثير البروتستانتية التركيبة الفكرية المهيمنة.

غير أن أساس هذه التركيبة الجمعية تعرض للتدمير فيما بعد بفعل التطور اللاحق للنظام الصناعي الذي عمل على دمج القدرات الشخصية والجهد والعمل في وحدات كلية مشتركة. وفي غضون ذلك، كان من شأن السيطرة على الطاقات الطبيعية أن ألغت الزمن والمسافة، لذلك نرى الفعل الذي تكيف مع الأحوال المحلية قد طغت عليه أعمال معقدة لا نهائية المدى. ومع ذلك بقيت تلك التجهيزات الذهنية القديمة بعد أن اختفت أسبابها وأسسها. وهذا هو أساساً الانقسام الداخلي الذي منه انبثق ما لدينا الآن من تشوش وارتباك وغياب الوفاء والإخلاص.

لقد كان للفردية القديمة عقيدة ووظيفة محددتان. فهي سعت جاهدة لتحرير حاجات الإنسان وجهوده من تلك القيود القانونية بغية إرضاء حاجاته تلك. وكانت تعتقد أن هذا الانعتاق سوف يحفز الطاقة الكامنة للعمل وبأنه سوف يخصص طاقة الفرد للعمل المهيأة له، ويجعلها تقوم بالعمل بناء على حافز المنفعة والفائدة التي تكسبها، وبأنه سوف يؤمن لهذه القدرة والمبادرة الثواب والموقع اللذين تستحقهما. وفي هذه الأثناء تكون الطاقة الفردية ومدخراتها لخدمة حاجات الآخرين وبذلك تعزز الرفاه العام وتنشئ انسجاماً عاماً للمصالح.

لقد قطعنا شوطاً بعيداً منذ تأسست هذه الفلسفة. واليوم نرى أن المدافعين الأقوياء عن هذا النوع من الفردية لا يغامرون

لتكرار نصوصها المتفائلة. وهم في الأعم الأغلب يكتفون بالتصريح عن تناغمها مع الطبيعة الإنسانية اللامتغيرة والتي توصف بأنها لا تتحرك نحو العمل إلا بأمل الحصول على مكسب خاص ولترسم صوراً كئيبة ورهيبة للتبعات الحتمية للتغير نحو أي نظام آخر. وهم يعزون جميع المنافع المادية الظاهرة في حضارتنا الحالية لتلك الفردية – كما لو أن الآلات قد صنعت بسبب الرغبة في ربح المال، وليس بفعل العلم البعيد عن الشخصنة، وكما لو أنها تعمل بقوة المال وحدها، وليس بالكهرباء والبخار بتوجيه من التكنولوجيا الجمعية.

لكن الفردية في أمريكا اتخذت شكلاً رومانسياً، إذ لم يكن من الضروري تقديم نظرية تساوي بين الكسب الشخصي والتقدم الاجتماعي. إنما مطالب الموقف العملي تستدعي مبادرة الأفراد وإقدامهم ونشاطهم في كل عمل آني يتطلب الفعل بإلحاح، وعملهم هذا هو الذي يعزز الحياة الوطنية. أما روح الزمان فقد عبر عنها الدكتور كروذرز Crothers بكلمات جعلها السيد سيمز Sims جزءاً من نص أعده بعنوان "أمريكا المغامرة Adventurous America":

"إن أردت أن تفهم القوة المحركة لأمريكا، فعليك أن تفهم «أولئك الشباب الكثر المستاءين الذين لا يعرفون الصبر» والذين هم من كل جيل وجدوا متنفساً لطاقتهم ... والضجيج الذي

يزعجك ليس صرخات عمّال غاضبين، بل هو صراخ شباب تواقين يعملون على إيجاد فرص جديدة ... فهم اليوم يمثلون حماس جيل جديد. هم يمثلون عمّال ولايتي أوريغون وكاليفورنيا اللتين نحوها يتجه الرواد الأقوياء المثابرون غير عابئين بالعقبات. وهذا ما يعنيه الاضطراب الاجتماعي في أمريكا."

فإن لم يكن هذا القول صدى لصدى صوت قيل منذ زمن بعيد فلا أعرف ماكنهه. لكنني في الحقيقة لا أسمع ضجيج عمال غاضبين، ولكن ربما يتعين عليّ أن أفترض أن تلك الأصوات التي نسمعها ما هي إلا تمتمات لفرص ضائعة، تنطلق إلى جانب هدير صادر عن الآلات والسيارات ومن حانات رخيصة تطغى على همهمات الاستياء، وليس صرخات شوق لفرصة تنطوي على مغامرة.

كان للنسخة الأوروبية للفردية القديمة قيمتها ومسوغها المؤقت لأن التكنولوجيا الجديدة كانت بحاجة للانعتاق من قيود قانونية مزعجة. وكانت صناعة الآلات بحد ذاتها حالة رائدة، وكان أولئك الذين قادوها في مواجهة اللامبالاة والتشكيك والمعوقات السياسية جديرين بمكافآت خاصة. وعلاوة على ذلك كان الجميع يفكرون بتراكم رأس المال من منطلق مشاريع هي اليوم قليلة، ولم يكن ثمة من يحلم بأنه سيأتي زمان يصل فيه هذا التراكم إلى حجم ضخم يجعله من يقرر النظام القانوني

والسياسي. كان الفقر في السابق مقبولاً على أنه من فعل الطبيعة الذي لا يمكن اجتنابه. أما الصناعة الحديثة فقد حملت وعداً بالتخلص منه، هذا على الأقل بنظر أولئك الذين يملكون الطاقة والإرادة على الادخار والتراكم. ولم يكن ثمة توقع لزمان يشكل فيه تطور تكنولوجيا الآلة أساساً مادياً ليسر وراحة معقولين ولمتسع من وقت الراحة للجميع.

لكن التبدل الذي يجعل الفردية القديمة مجرد صدى عابر يبدو بوضوح وسرعة في هذا البلد هما أكبر وأشد مما هو عليه في أي بلد آخر. أين هي القفار التي تنادي الطاقة الخلاقة وتشكل فرصة لم يعرفها أحد للمبادرة والنشاط؟ أين هو ذلك الرائد الطليعي السائر قدماً والممتلئ سعادة نحو غزوها وسط بحر واسع من العوز والحرمان؟ هذه القفار موجودة الآن في الروايات والأفلام السينمائية وعند أولاد أولئك الرواد الذين يعيشون الآن وسط بيئة هي من صنع الآلة ويستمتعون بحياة الرواد الأوائل متكاسلين خاملين ينظرون إلى الفلم بديلاً عن الواقع. لست أرى اضطراباً اجتماعياً يشكل إجهاداً للطاقة وبحثاً عن منفذ للعمل، بل أرى احتجاجاً على ضعف النشاط والعمل وعلى وهن الطاقة المنبعثة من غياب فرصة بناءة، وأرى تشوشاً وارتباكاً هما تعبير عن العجز عن إيجاد مكان آمن له مكافأته الأخلاقية في مشهد اقتصادي معقد ومضطرب.

وبسبب إفلاس الفردية القديمة نجد أولئك الذين يعلمون بانهيارها يتحدثون ويتجادلون كما لو أن الفردية ذاتها قد انتهت وانقضى عهدها. لا أظن أن أولئك الذين يعتبرون الاشتراكية والفردية كفرضيتين متناقضتين تعنيان حقاً أن الفردية سوف تتلاشى أو أنها ليست شيئاً ثميناً في جوهره. ولكن عند الحديث كما لو أن الفردية الوحيدة هي تلك القصة المحلية من سلسلة قصص حدثت على مدى قرنين مضيا، فهم يتصرفون بطريقة تفيد من يرغبون بإبقائها حية لتخدم أغراضهم وغاياتهم ويتغاضون عن المشكلة الرئيسية، ألا وهي إعادة تشكيل المجتمع بهدف نماء نوع جديد من الأفراد. ثمة كثيرون ممن يعتقدون أن الاشتراكية بشكل معين ضرورية لتحقيق المبادرة الفردية والأمن على نطاق واسع. وهم يهتمون بتقييد السلطة والحرية وجعلها بيد أقلية من الناس في النظام الحالي، ويظنون أن السيطرة الاجتماعية المشتركة ضرورية، لأجل محدود على الأقل، بغية تحقق فوائدها لصالح الجميع. وفي كثير من الحالات يبدو أنهم يفترضون بأن النتيجة ستكون مجرد امتداد للفردية القديمة لتشمل الكثيرين.

إن تفكيراً على هذا النحو يعامل الفردية كما لو أنها شيء ساكن ستاتيكي له مضمون متناسق. ويتجاهل حقيقة تقول بأن البنية الذهنية والأخلاقية للأفراد، أي نمط رغباتهم وغاياتهم، تتغير مع كل تغير كبير في التكوين الاجتماعي. لكن الأفراد

الذين لا يرتبطون معاً في جمعيات أو اتحادات سواء كانت محلية أم اقتصادية أو دينية أو سياسية أو فنية أو تعليمية هم كيانات ضخمة هائلة القوة والتعقيد. ومن الغباء الافتراض بأن الروابط التي تجمعهم معاً هي مجرد روابط خارجية ولا تتفاعل في الذهن والشخصية أو تنتج إطاراً لمزاج شخصي.

إن سبب مأساة "الفرد الضائع" هو تلك الحقيقة القائلة بأنه على الرغم من كون الأفراد الآن موجودين في تجمع واسع من الروابط إلا أنه لا يوجد انعكاس مترابط أو متناغم لأهمية هذه الصلات في وجهة نظر كل منهم للحياة عاطفياً أو تصورياً. وسبب هذه الحقيقة يعود بالطبع إلى غياب الانسجام داخل حالة المجتمع. هنالك حلقة مفقودة لا أحد يرتاب بها. لكنها حلقة مفقودة تتعلق فقط في إحجام الناس عن قبول واقع الوضع الاجتماعي – بروح تتسم بالفكر والملاحظة والاستفسار كما جرى تعريفها في الفصل السابق – وبسبب هذا الإحجام والرفض هم يستسلمون للانقسام أو يسعون لإنقاذ فرديتهم إما بالهروب أو بمجرد تمرد عاطفي. وأما عادة معارضة التجمع والتوحد بالنسبة للفرد فهي تنزع نحو استمرارية أكيدة للفوضى والشك. وهي تبعد الاهتمام عن الموضوع الأهم، ألا وهو كيف يعيد الفرد إيجاد نفسه في موقف اجتماعي جديد غير مسبوق، وما هي الصفات التي ستتخذها الفردية الجديدة؟

وأما القول بأن المشكلة ليست مجرد مشكلة امتداد لصفات المبادرة الاقتصادية والفرص وحب المغامرة لتشمل الأفراد جميعاً، أو بأنها مشكلة تكوين نوع سيكولوجي وأخلاقي جديد، فهذا ما يوحي به الضغط الكبير القائم حالياً لإحداث تطابق وتوحيد في الرأي العام الأمريكي. لماذا يكون التنظيم المنهج في جماعات أو إقامة معدل وسطي يؤخذ من آراء جماهير واسعة توضع في نماذج تنظيمية، أو على العموم هيمنة الكم على النوع، السمة الخاصة للحياة الأمريكية الراهنة؟ ولا أرى لهذا إلا تفسيراً أساسياً واحداً. ذلك إن الفرد لا يستطيع أن يبقى في فراغ فكري. وإن لم تكن آراؤه ومعتقداته الوظيفة الطبيعية التلقائية لحياة اجتماعية يشارك فيها فسوف يعمل على تأمين إجماع ظاهري في الرأي يكون البديل لذلك من خلال وسائل اصطناعية وميكانيكية. وبسبب غياب ذهنية متناغمة مع الشركاتية الاجتماعية الجديدة الآخذة بالتكوين يظهر مجهود يائس لملء الفراغ بقوى خارجية تحصل على موافقة مصطنعة.

ونتيجة لذلك يبدو تماثل الأفكار لدينا أكثر سطحية مما هو عليه حقيقة. وتوحيد المعايير أمر يدعو للأسى، ولكن قد يقول قائل إن أحد الأسباب الداعية لهذا الأسى هو أن التماثل لم يكن عميقاً. فقد مضى قدماً إلى حد يكفي بإحداث كبت للجودة الأصلية للفكر، ولكن ليس بما يكفي لتحقيق وحدة دائمة. طبيعته السطحية ظاهرة في عدم استقراره. وكل مظاهر

التوافق والاتفاق التي يمكن الحصول عليها بوسائط خارجية، أو من خلال التخويف والقمع، وإن كان لطيفاً، أو من خلال الدعاية التي أحسنت دراستها هي بحكم الضرورة سطحية، وكل شيء سطحي يكون عادة في حالة تغير متواصل. فالطرائق المستخدمة تنتج سذاجة تسرع في التصديق، وهذا ينتقل سريعاً من شيء لآخر طبقاً للمقترحات السائدة في عصرها. نحن نفكر ونشعر بشكل متشابه — إنما لشهر واحد فقط أو لموسم واحد. ثم يأتي حدث جديد يثير الأحاسيس، أو شخصية جديدة تستحوذ على مشاعرنا فيحصل توحد في الاستجابة بفعل الإيحاء — فيكون التماثل في وقت معين وإن أخذ بمقطع عرضاني هو القاعدة. وعلى فترة من الزمن تحسب طولانياً يكون عدم الاستقرار والتغير هما المهيمنان ... أعتقد أن ثمة آخرين لديهم شعور بالاستياء إزاء بعض المصطلحات، مثل "ذهن هوائي" أو "وعي إذاعي"، المفروضة علينا الآن وعلى نحو متواتر. ولا أعتقد أن هذا الاستياء عائد فقط لأسباب لغوية، بل هو شاهد على وجود إحساس نصف واع للطرائق الخارجية التي بها تتكون عقليتنا وتتأثر ولسطحية النتيجة وعدم تجانسها.

وهنالك، كما أظن، أشخاص يتوهمون أن التأكيد الذي أشير إليه على شركاتية المجتمع القائم في الولايات المتحدة هو بالنتيجة، وإن لم يكن أصلاً في نية الكاتب الواعية، دعوة لتماثل وتكيف مع الآخرين أكثر مما هو قائم حالياً. ولا شيء

أكثر بعداً عن الحقيقة من ذلك. تعريف المجتمع بمستوى معين من التماثل، أياً كان منخفضاً أم عالياً، هو مجرد دليل آخر على ذلك الارتباك الذي بسببه نجد الفرد ضائعاً. والمجتمع بدون شك ليس سوى علاقات للأفراد بين بعضهم بعضاً بهذا الشكل أو ذاك. والعلاقات جميعاً تفاعلات وليست قوالب ثابتة. والتفاعلات الخاصة التي تكوّن مجتمعاً بشرياً تتضمن المشاركة في الأخذ والعطاء. هي مشاركة تزيد وتوسع وتعمّق قدرة وأهمية العوامل المتفاعلة. أما التماثل والتكيف فهو اسم لغياب التفاعل الحيوي، وتوقف وشلل التواصل. وكما كنت أحاول قوله، هو ذلك البديل الصنعي المستخدم في توحيد الناس عند غياب الاتحاد والمتجسدة في تصرفات الفرد الداخلية من حيث الفكر والرغبة. وإني لأجدني في كثير من الأحيان أتساءل عما هو المعنى المعطى لمصطلح "المجتمع" من جانب أولئك الذين يضعونه في حالة تعارض مع حميمية التفاعل الشخصي مثل حميمية الصداقة. لعلهم يضعون في أذهانهم صورة لمؤسسات جامدة أو لجماعة معينة ولتنظيم خارجي. لكن أي مؤسسة تختلف عن هيكلية التواصل الإنساني والعلاقات الإنسانية لن تكون أكثر من مستحاثة لمجتمع قديم مضى، والتنظيم، كما هو في داخل أي كائن حي، هو اتفاق جماعي تعاوني لآلاف الخلايا، كل واحدة منها تعيش في حالة مقايضة مع الأخريات.

لعلي أرى أن الأكثر ذكاء من بين أولئك الذين بيدهم وكالات الإعلان التي تنتج التطابق والتماثل قد ينزعجون لدى رؤيتهم لنجاحهم. وبوسعي أن أتفهم بسهولة أن لديهم إحساساً ساخراً متشائماً بقدرتهم على الحصول على النتائج التي يريدونها في وقت معين، لكنني أظن أيضاً أنهم ربما يخشون بأن التماثل في الفكر في لحظة حرجة قد ينحرف نحو توجه غير متوقع ويتحول إلى إجماع متكافئ في الموقف ضد الأشياء والمصالح التي تم استغلالها بغية الدعم. سيكولوجية الجماهير شديدة الخطورة لما فيها من عدم استقرار. والاعتماد عليها للحصول على دعم دائم ليس سوى لعب بالنار سرعان ما تخرج عن السيطرة. أما التماثل والتطابق فهو مؤثر وفعال على الدوام عندما يكون عفوياً وإظهاراً لا شعورياً كبيراً للتوافقات المنبعثة عن حياة اجتماعية أصيلة. أما التماثل الصنعي للفكر والعاطفة فهو عَرَض من أعراض فراغ داخلي. وليس كل ما نراه موجوداً الآن ناتجاً عن قصد، وهو ليس نتيجة الاستغلال المقصود. لكنه من جهة أخرى نتيجة أسباب خارجية مثلما هي عرضية وغير مستقرة.

ربما يوجد تفسير لعادة "الانضمام للآخرين" عند الأمريكي العادي وكذلك حبه المفرط للمشاركة الاجتماعية ليس بعيداً عن تفسير التماثل والتطابق مع الآخرين. وكلاهما في الوقت نفسه دليل على كره الطبيعة لذاك الفراغ الذي أنتجته الفردية القديمة الزائلة. ولا ينبغي لنا أن نبغض العزلة إذا كان لدينا،

حين نكون وحيدين، صحبة فكر اجتماعي تأسس في عاداتنا العقلية. ففي غياب هذه الحالة التشاركية توجد ضرورة لتعزيز التواصل الخارجي. وحبنا للاجتماع مع الآخر هو على الأغلب مجهود نبذله لإيجاد بدائل للوعي الطبيعي العادي للاتصال والاتحاد الناشئين عن كوننا أعضاء داعمين ومدعومين في كلٍ اجتماعي واحد.

ومثلما لا يمكن تحقيق الفردية الجديدة من خلال توسيع منافع الفردية الاقتصادية القديمة لتشمل عدداً أكبر من الأشخاص، كذلك لا يمكن تحقيقها من خلال المزيد من تطوير السخاء والمودة والغيرية. هذه صفات مرغوبة ولا شك لكنها أيضاً تعبير شبه دائم للطبيعة البشرية. هنالك الكثير في الموقف الحالي مما يحفز هذه الصفات للعمل النشط. ولعلها ميزات هي الأكثر بروزاً في الحياة الأمريكية مما هي في أي حضارة أخرى في أي وقت من الأوقات. وما حبنا لخير وسعادة البشر إلا تعبيراً عن ضمير قلق. وظهورها هذا دليل على الإدراك بأن نظاماً للصناعة ينفذ بهدف مكسب خاص لا يلبي الطبيعة البشرية حتى عند أولئك المستفيدين منه. فالدافع والحاجة اللذين يحاول النظام القائم خنقهما عبر منع التعبير عنهما يجدان منفذاً لهما في أفعال تنم عن إقرار بالمسؤولية الاجتماعية التي ينكرها النظام في كونه نظاماً. ومن هنا نشأت الإجراءات الخيرية الهادفة إلى سعادة البشرية ليس لتكون تعويضاً فحسب عن خنق الطبيعة البشرية

عبر الأعمال، لكنها بطريقة ما تنطوي على نبوءة. فالبناء أفضل من الإغاثة، والوقاية خير من العلاج. أما الأنشطة المبذولة بهدف تخفيف الفقر وما يرافقه من توترات ذهنية وأمراض جسدية – وكذلك أنشطتنا الخيرية بما في ذلك أوقاف المؤسسات التربوية التي لها أسبابها الأولية في نشوء انعدام الأمن الاقتصادي – فهي توحي من خلال تنبؤ مبهم بظهور مجتمع تعمل فيه المهن والعلاقات اليومية على توفير الاستقلالية والعيش المادي لجميع الأفراد العاديين المشاركين في استمرارية تقدمه محتفظين بالإغاثة لحالات طارئة استثنائية. ولا يحتاج المرء للكثير من التأمل في الدوافع الشخصية لدى كبار العاملين في المشاريع الخيرية ليكتشف فيما يفعلونه سجلاً توكيدياً لانهيار التنظيم الاقتصادي القائم لدينا.

أما العقبة الرئيسة التي حالت دون خلق نوع من الأفراد يكون نمط فكرهم ورغباتهم مميزاً دوماً بالاتفاق والتوافق مع الآخرين، ونمطاً يكون فيه حب مخالطة الآخرين ميزة مثلما التعاون داخل الاتحادات والروابط البشرية المنتظمة، فهي استمرارية صمود تلك الميزة المعروفة في الفردية القديمة التي تعطي تعريفاً للصناعة والتجارة عبر أفكار الربح المالي الخاص. ومرة أخرى نسأل لماذا يوجد هذا الحماس للتشابه الموحد؟ أعتقد أنه ليس بسبب أن التماثل والتطابق بذاتهما يبدوان نعمة كبرى. لكن السبب هو أن نوعاً معيناً من هذا التماثل يشكل دفاعاً عن

وحماية للمزايا المالية لنظامنا الحالي. فالساحة الأمامية يمكن ملؤها بتصوير الخوف من التغيير وبصخب للقانون والنظام ودعم للدستور. ولكن وراء ذلك كله توجد رغبة حقيقية لاستمرار وإطالة أمد ذلك النظام الذي يعرّف مبادرة الفرد وقدرته من خلال النجاح في القيام بالأعمال لأجل كسب المال.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الأهمية الكلية للفردية القديمة قد تقلصت وانكمشت لتصبح مجرد مقياس مالي. وأما الفضائل المفترض بها أن تترافق مع فردية فظة فيمكن الإعلان عنها بالصوت، ولا ضرورة للكثير من التبصر العميق والتحليل لمعرفة أن ما نعتز ونؤمن به يقاس بصلته بتلك الأنشطة العاملة من أجل النجاح بالأعمال الهادفة إلى مكسب شخصي. ومن هنا نرى السخرية في دستور وتعاليم "الفردية" في الأعمال المترافقة مع كبت للفردية في الفكر والقول. لا يستطيع المرء أن يتصور تعليقاً على فردية معلنة أشد مرارة من وصفها بأنها تجعل الفردية الخلاقة الوحيدة ـ ألا وهي فردية العقل ـ خاضعة للحفاظ على نظام يعطي القلة القليلة فرصة لتكون الأكثر ذكاء وفطنة في إدارة الأعمال المالية.

يزعمون، بالطبع، أن فردية تحقيق الذات الاقتصادية، حتى لو لم تنتج تنظيماً معيناً للمقدرة والمكافأة وذلك الانسجام في المصالح الذي سبق وتوقعناه، قد أعطتنا فائدة الازدهار المادي.

وليس ضرورياً أن نطرح هنا سؤالاً حول مدى اتساع هذا الازدهار المادي، لاسيما وأنه ليس صحيحاً أن سببه المحرك هو الفردية المالية. فقد كان ذلك سبب بعض الثروات العظيمة وليس الثروة الوطنية، إنما لهذا السبب دور في عملية التوزيع، وليس في الخلق الأولي. بيد أن البصيرة العلمية الثاقبة التي برزت في ظهور تكنولوجيا الآلة كانت بحق القوة المنتجة العظمى. فالفردية الاقتصادية بمجملها تفسر بأنها طاقة ومبادرة مكرستان للربح الخاص، وهي ملحق إضافي، غالباً ما يكون طفيلياً، لحركة القوى العلمية والتقنية.

لقد تغير المشهد الذي فيه خلقت الفردية. أما الرائد الطليعي، الموصوف في العبارة المقتبسة عن كروذرز Crothers آنفاً، فلم يكن بحاجة لأية أفكار غير تلك الناشئة من الأعمال والمهام الآنيّة التي انشغل بها. مشكلاته الفكرية ظهرت جراء صراعه مع قوى الطبيعة المادية. كانت الأرض القفر واقعاً ماثلاً أمامه وعليه أن يخضعها. فكانت صفة الشخصية التي تكوّنت أنها قوية وشديدة، وفي معظم الأحوال فاتنة ورائعة وفي بعض الأحيان بطولية. كانت الفردية واقعاً لأنها منسجمة مع الظروف. وأما الأفكار التقليدية غير ذات الصلة بالدين والأخلاق فقد تم الاحتفاظ بها لكنها اختزلت إلى حجم لا تكون فيه مؤذية، وفي الواقع كانت أفكاراً يسهل تفسيرها بطريقة تعزز الإنسان القوي

الذي لا يعرف الاستسلام وتشكل عزاء ومواساة للضعيف غير القادر.

لكن الصراع لم يعد صراعاً مع تلك الأرض القفر التي يجب مصارعتها. ومن هنا يمكن القول إن مشكلاتنا نشأت عن الأحوال الاجتماعية، أي إن لها صلة بالعلاقات الإنسانية وليس بعلاقة الإنسان المباشرة مع الطبيعة المادية. وأما مغامرة الفرد، إذا كان ثمة مغامرة للفردية وليس نكوصاً إلى حالة موت الرضا الذاتي أو السخط اليائس، فهي مغامرة على جبهة اجتماعية لم يتم إخضاعها. وهنا يمكن القول إن القضايا لا يمكن مواجهتها بأفكار مرتجلة حسب المناسبة. والمشاكل التي ينبغي إيجاد الحلول لها عامة، وليست محلية. بل إن لها علاقة بقوى معقدة تعمل حالياً في طول البلاد وعرضها، وليست تلك المشاكل المحدودة داخل بيئة مباشرة نقابلها وجهاً لوجه. والأفكار التقليدية أكثر من أن تكون غير ذات علائقية. هي معوّقات، لأنها العقبة الأساسية في وجه تكوين فردية جديدة متكاملة مع ذاتها داخلياً ومع وظيفة تحررية في المجتمع الذي تعيش فيه. ولا يمكن تحقيق فردية جديدة إلا من خلال الاستخدام الخاضع للرقابة لجميع موارد العلوم والتكنولوجيا التي سيطرت على القوى المادية للطبيعة.

فهي الآن قوى غير مسيطر عليها وفقاً لأي معنى جوهري، بل هي التي تتحكم بنا. هي بحق تحت السيطرة مادياً. فكل مصنع وكل محطة توليد كهرباء وكل منظومة سكك حديدية تدل دلالة أكيدة على أننا قد حققنا هذه الدرجة من التحكم والسيطرة. لكن السيطرة على الطاقة من خلال الآلة ليس سيطرة على الآلة ذاتها. والسيطرة على طاقات الطبيعة بالعلم ليس استخداماً للعلم تحت الرقابة. فما زلنا بعيدين عن ذروة السيطرة، بل نحن بالكاد عند بداياتها الهشة. والتحكم متناسب مع النتائج والغايات والقيم، ونحن لا نتحكم، بل لم نبدأ نحلم بأن نتحكم بالقوة المادية لصالح الأغراض المتوقعة والسلع المحتملة. لقد أخذتنا الآلة على حين غرة ونحن لسنا على استعداد. وبدلاً من تكوين غايات جديدة تتوافق مع وتكافئ إمكاناتها حاولنا أن نجعلها في خدمة أهداف هي تعبير عن عصر كانت فيه السيطرة على الطاقات الطبيعية على نطاق واسع وهماً من أوهام السحر. وكما قالت كلارنس آيريس Clarence Ayres: "بدأت الثورة الصناعية، كما يقول بعض المؤرخين، بعدد محدود من التحسينات الفنية في صناعة النسيج، واحتاج بنا الأمر لقرن من الزمان لندرك بأن أي شيء له أهميته قد حدث لنا من خارج ذلك التحسين الذي أدخل على صناعة الغزل والنسيج."

لا أقصد بقولي هذا أن أهداف وقيم الماضي كانت ثانوية في ذاتها. لكنها كانت ثانوية من حيث لا ندرك إذا قورنت بالوسائل

التي بأيدينا اليوم – هذا إذا كان لدينا خيال واسع بما يكفي للإحاطة بكل استخداماتها المحتملة. وهي أسوأ من أن تكون ثانوية، بل هي مربكة ومشوشة للذهن عندما يقف الناس بمواجهة الوسائط والقوى المادية التي تعمل بطيش وتهور وتدفعنا هائمين لا ندري وجهتنا حين لا يكون لها هدف شامل وتخطيط منسق. فأنا لا أحصل على الرضا الفكري والأخلاقي والجمالي من فلسفة معلنة تنفخ الحياة في روسيا البلشفية. غير أنني على ثقة بأن مؤرخاً في المستقبل يحاول تأريخ عصرنا هذا سوف يجمع ما بين الإعجاب والدهشة، الإعجاب بأولئك الذين كان لديهم أولاً الخيال ليروا بأن موارد التكنولوجيا يمكن توجيهها من خلال التخطيط المنظم لخدمة أهداف مختارة والدهشة إزاء التبلد الفكري والأخلاقي عند آخرين كانوا أكثر تطوراً وتقدماً في النواحي التقنية.

لا يوجد علامة تدل على شلل الخيال الذي تستحثه العادات والدخول في التفاصيل الآنية أقوى من ذاك الاعتقاد الذي يروّج له الكثيرون دون كلل ممن يتفاخرون بأنهم أصحاب الذوق الأسمى وبأن الآلة هي مصدر جميع متاعبنا. ولا أحد يشك بأن الموارد ذات الإمكانات الهائلة تفرض مسؤولية وعلى الجميع أن يثبتوا ما إذا كانت القدرات البشرية تستطيع أن تنهض للإفادة من الفرص التي فتحتها أمامنا الآلة والتكنولوجيا. ومن العسير التفكير

بشيء يكون أكثر طفولية من تلك الأرواحية* التي تضع اللوم على الآلة. والآلة تعني مخزوناً للطاقة لم يحلم به أحد. وحيث أننا سخّرنا هذه الطاقة لخدمة الدولار بدلاً من تحرير وإثراء حياة الناس، فذلك لأننا كنا قانعين بالبقاء داخل حدود الأهداف والقيم التقليدية مع أننا نملك إداة تغيير ثورية. وما تكرار المعتقدات القديمة للفردية إلا دليلاً على القناعة بالبقاء داخل هذه الحدود. وأنا شخصياً أعتقد بأنه لا يمكن أن نصدق بأن هذا الشكل الخاص للاعتراف بالدونيّة سيستمر طويلاً. وعندما نبدأ بطرح أسئلة حول ما الذي يمكن أن نفعله بالآلة في سبيل خلق وتحقيق قيم تتكافأ مع قوتها، وعندما نبدأ بالتخطيط المنظم لإنتاج هذه السلع عندئذ يبدأ بالتشكل فرد جديد له علاقة تبادلية مع واقع العصر الذي نعيش فيه.

للتمرد على الآلة من حيث كونها سبب الشرور الاجتماعية أصل جمالي عادة. فالتفاعل الفكري وشبه الفلسفي يجد مصدراً له في العلم الطبيعي، وإن لم يكن في العلم نفسه (الذي يتاح له أن يكون بحال جيدة جداً إذا احتفظ بموقعه المتواضع) عندئذ في موقف أولئك الذين يعتمدون على العلم في كونه أداة الرؤية

* الأرواحية animism هي مذهب حيوية المادة، أي الاعتقاد بأن لكل ما في الكون وحتى للكون ذاته روحاً أو نفساً، إضافة إلى الاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي المنظم للكون (م.)

والنور. أما ازدراء الطبيعة فهو أمر يمكن فهمه، تاريخياً في الحد الأدنى، رغم أنه يبدو تافهاً فكرياً وبغيضاً أخلاقياً أن يقوم المرء بازدراء منشأ كوننا وحال حياتنا التي لا مفر منها. وما القول بأن الناس قد يخشون ويكرهون نهج مقاربة الطبيعة فهذا ما لا أفهمه. العين ترى أشياء كريهة كثيراً واليد تفعل الكثير من الأعمال المتسمة بالقسوة. ومع ذلك نرى أن ثمة من يعترف ويقر بالمتعصب الذي يفقأ العين ويقطع اليد. قد يقول المرء إن العلم ليس سوى امتداد لأدواتنا الطبيعية في مقاربة الطبيعة. وهنا لا أقصد فقط مجرد امتداد في مجال الكم والاختراق مثلما يفعل المنظار المايكروسكوب الذي يضاعف كثيراً من قدرة العين المجردة، بل أقصد امتداداً للبصيرة والإدراك من خلال جعل العلاقات التبادلية والتفاعلات البينية واضحة للنظر. وحيث أنه يتعين علينا على أية حال أن نقارب الطبيعة بطريقة ما وعبر مسار ما – حتى لو كان الموت فقط ـ فإنني أعترف بعجزي الكامل عن فهم أولئك الذين يعارضون مقاربة تحت رقابة ذكية ـ فهذا هو العلم عينه.

والطريقة الوحيدة التي بها أستطيع الحصول على فهم متعاطف مع موقفهم هي أن نتذكر أنه كان يوجد أشخاص اعتنقوا عبادة العلم وقدسوه، أشخاص فكروا في العلم على أنه ليس منهجية مقاربة وإنما في كونه كياناً منغلقاً على ذاته وغاية بحد ذاته، بأنه نظام لاهوتي جديد ذاتي الكفاية السلطوية أوحت

به الحقيقة الكامنة المطلقة. وربما يبدو تصحيح سوء فهمهم أبسط من مشاركتهم إياه أولاً وفيما بعد قلب عبادتهم هذه إلى إدانة. وما هو ضد المنهجية الذكية عدم وجود منهجية أو وجود منهجية عمياء وغبية. حالة ذهنية غريبة تلك الحالة التي يسعدها أن تضع "حدوداً للعلم." وكذلك الأمر، الحدود الحقيقية للمعرفة هي الجهل، ونقطة تمجيد الجهل لا تتضح إلا عندما يعبر عنها من يستفيدون من بقاء الآخرين في جهل مطبق. ولكن بالطبع توجد حدود خارجية للعلم. إنما هذه المحدودية تكمن في عدم كفاءة أولئك الذين يضعون العلم قيد الاستعمال، أما زوالها فيكمن في تصحيح استخدامها وليس إساءة استعمال الشيء المستخدم.

لهذه الإشارة إلى العلم والتكنولوجيا أهميتها وعلائقيتها لأنهما القوتان في حياتنا الحالية ذات الأهمية النهائية. ومن خلال استخدامهما بتفهم جيد لأهميتهما المحتملة قد تخرج للوجود الفاعل فردية جديدة متوافقة ومتناغمة مع واقع العصر الراهن. هنالك مستويات عدة وعناصر عدة عند كل من الفرد وعلاقاته. ولا يمكن التعامل مع أي منهما ولا فهم أي منهما مجتمعين. الانتقاء والحساسية في التمييز أمر ضروري. والفن هو ثمرة ذلك الانتقاء عندما يعطى الأثر الموضوعي. والفن الذي يحتاجه عصرنا لكي يخلق نوعاً جديداً من الفردية هو ذلك الفن الذي، من خلال كونه حساساً للعلم والتكنولوجيا اللذين هما القوتان المحركتان لعصرنا، يستطيع أن يتصور ثقافة رحبة شاملة

واجتماعية يخدمها العلم والتكنولوجيا. لست قلقاً إزاء توصيف الشكل الذي سوف تتخذه الفردية الناشئة. والحق أقول، لا أرى كيف يمكن وصفها حتى يتحقق تقدم أكثر في إنتاجها. لكن هذا التقدم لا يمكن أن يبدأ حتى نكف عن معارضة التوحد الاجتماعي للفرد، وحتى نطوّر ملاحظة تخيلية بناءة لدور العلم والتكنولوجيا في المجتمع الحقيقي. لكن العقبة الكأداء في طريق هذه الرؤية هي، وأقولها مجدداً، تكريس وإدامة الفردية القديمة التي اختزلت الآن إلى مجرد استخدام العلم والتكنولوجيا لغايات الكسب المالي الخاص. وأجدني أتساءل أحياناً عما إذا كان أولئك الذين يشعرون بالعلل الحالية ومع ذلك يوجهون ضربات نقدهم اللاذع إلى كل شيء ما عدا هذه العقبة ألا تحركهم الدوافع التي يفضلونها لا شعورياً ليبقوا دون الوعي؟

الفصل السادس

هل هي اشتراكية رأسمالية أم اجتماعية؟*

سمعت ذات يوم محامياً بارزاً يقول بأن الأفكار الأمريكية القديمة حول المبادرة الفردية يمكن استعادتها من خلال تعديل سطور قليلة في الدستور الاتحادي. وبأن هذا التعديل سوف يحظر مشاريع الشركات المساهمة ولن يسمح إلا لمسؤولية الفرد بأن يكون له وضع قانوني. أظن أن هذا المحامي كان الديمقراطي الوحيد الذي التقيته مخلصاً لأفكار جيفرسون**. وكان أيضاً رجلاً منطقياً. لم يوهم نفسه بالافتراض بأن إنجيل الرواد الأوائل

---

* انشرت لأول مرة في مجلة New Republic 62 بتاريخ 1930/3/5]

** توماس جيفرسون Thomas Jefferson (1743- 1826) الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية (1801- 1809) ويعتبر الواضع الرئيسي لوثيقة إعلان الاستقلال.(م.)

الذي تحدث عن المبادرة الشخصية والمشروع الفردي وعن الطاقة والمكافأة يمكن الحفاظ عليها في حقبة من الزمن ساد فيها رأس المال لتجمع الشركات، والإنتاج والتوزيع واسع الكم والملكية اللاشخصية والملكية المنفصلة عن الإدارة. بيد أن حياتنا السياسية لا تزال تتجاهل التغيير الحاصل فيما عدا أن تفرض الظروف أخذه في الاعتبار في مسائل متفرقة.

لكن الأسطورة التي لا تزال متداولة هي أن الاشتراكية ترغب في استخدام الوسائل السياسية بغية توزيع الثروة بالتساوي بين جميع الأفراد، وأنها بالتالي تعارض تطور الشركات الاحتكارية أو التروستات واندماج الشركات وتوحيد الأعمال عموماً. وهذا يعني بعبارة أخرى، أنها تعتبر نوعاً من فردية مجزأة حسابياً. إن هذه الفكرة عن الاشتراكية هي نوع يمكن أن يقبله أولئك الذين لا يستطيعون الانفلات من المفهوم الكامن للفرد بأنه وحدة مستقلة ومنعزلة. أما في الواقع فإن كارل ماركس كان نبي هذه الحقبة الزمنية للتوحيد الاقتصادي. وإذا كانت روحه ترفرف فوق المشهد الأمريكي فلا بد أنه يشعر بالرضا لتحقق نبوءاته.

غير أن ماركس في نبوءاته هذه تحدث كثيراً منطلقاً من مقدمات وفرضيات اقتصادية سيكولوجية وقلما اعتمد على أسباب تكنولوجية – وأعني بذلك تطبيق العلم في البخار

والكهرباء والعمليات الكيميائية. أي إنه جادل إلى حد مفرط حول مصادرة الرأسماليين المزعومة لكل فائض القيمة التي أوجدها العمال – حيث يتم تعريف الفائض بأنه أي شيء يزيد عن الحد الأدنى اللازم للعيش واستمراره. بل وأكثر من ذلك، لم يكن لديه تصور أو إدراك لقدرة الصناعة المتوسعة على تطوير اختراعات جديدة بحيث تتطور معها حاجات جديدة وأشكال جديدة للثروة ومهن جديدة، حتى أنه لم يتصور أن القدرة الفكرية لطبقة أرباب العمل تساوي رؤية الحاجة إلى دعم القوة الاستهلاكية من خلال الأجور المرتفعة ليستمر الإنتاج ويستمر الربح. وهذا يفسر لنا لماذا لم تتحقق في هذا البلد نبوءته عن ثورة في السيطرة السياسية التي يسببها بؤس الجماهير عموماً وتُنتج إقامة مجتمع اشتراكي. ومع ذلك، فالقضية التي أثارها – وتحديداً علاقة الهيكلية الاقتصادية بالعمليات السياسية – هي قضية لا تزال قائمة وبكل قوة.

والحق يقال، إنها تشكل الأساس الوحيد للمسائل السياسية الراهنة. فقد قال مراقب ذكي وذو خبرة للأحوال في واشنطن بأن جميع المسائل السياسية التي سمعها تناقش في واشنطن تعود أولاً وأخيراً إلى مشكلات لها صلة بتوزيع الدخل. فالثروة والملكية وعمليات التصنيع والتوزيع – وانتهاء بتجارة التجزئة من خلال منظومة سلسلة المتاجر – لا يمكن إخضاعها لسيطرة الجماعة أو الحكومة بتنفيذ ظاهري دون تداعيات سياسية. فهذا يشكل

قضية جوهرية يجب أن تتصدى لها أحزاب سياسية جديدة أو قائمة. ويوجد أيضاً حيوية في الفردية القديمة تكفي لتكون عبئاً خطيراً جداً لأي حزب أو برنامج سياسي يحمل اسم "اشتراكية". لكن واقع هذا الموقف، على المدى البعيد، سوف يمارس الرقابة على الدلالات التي لأسباب تاريخية تتصل بقوة بهذه المفردة. وبسبب هذه الحقيقة تكون ثروة حزب يحمل اسماً معيناً غير ذات أهمية.

الطبيعة الأساسية للمسألة الاقتصادية ومن منطلق معنى واحد له أهميته لا تهمله الأنشطة السياسية الراهنة. والحزب المهيمن أسس نفسه رسمياً على أنه الراعي والحارس الأمين لهذا النجاح والازدهار، بل ذهب أكثر من ذلك ليعلن أنه هو من أبدع هذا الازدهار. وقد تسلل خفية تحت هذا الرداء ليصل إلى خيال عدد كاف من المواطنين والناخبين لذلك فهو مدين لهذا الازدهار بهيمنته المستمرة. الانتخابات الرئاسية في بلدنا يقررها الخوف من أولها لآخرها. مئات الآلاف من المواطنين الذين يدلون بأصواتهم لمستقلين أو للمرشحين الديمقراطيين في الانتخابات المحلية أو انتخابات الكونغرس النصفية يصوتون دوماً لصالح قائمة مرشحي الحزب الجمهوري كل أربع سنوات. وهم يفعلون ذلك بسبب خوف غامض لكنه مؤثر خشية مجيء شخص ما يفسد آلة المال والاقتصاد. وهذا الخوف عام لدى العمال مثلما هو عام لدى صغار التجار وأصحاب المحلات. وهذا هو من حيث الأساس

مصدر القوة الذي يبقي الحزب المهيمن في السلطة. مشروعنا الصناعي برمته معقد وحساس شديد الحساسية للاعتماد البيني لأجزائه المختلفة وسريع الاستجابة للمؤثرات برغم دقتها وكثرتها ما يجعله يبدو في نظر الناخبين أفضل من يتحمل العلل التي قد يتعرض لها وبما يجعله ينأى عن المجازفة بشيء قد يزعج الصناعة. وقد كان هذا العامل المقرر، حسب اعتقادي، في انتخابات عام 1928 برغم مشكلات المشروبات الكحولية والقضية الكاثوليكية آنذاك.

علاوة على ذلك، فإن الصورة التي قدمها هوفر* عن نفسه في الخيال الشعبي بأنه رجل له ذهن مهندس وليس ذهن رجل سياسي كانت قوة عظيمة له. فالهندسة حققت أشياء عظيمة، وكانت انتصاراتها واضحة في كل مكان. والمعجزات التي صنعتها بوأتها منزلة رفيعة بأنها صانع الأعاجيب. والناس الذين سئموا من السياسيين أحسوا لا شعورياً تقريباً بأن عقل المهندس وخبرته ومواهبه هي التي ستقدم العلاج الشافي والنظام إلى حياتنا السياسية. قد يستحيل تقديم إحصاءات حول القوة الحقيقية لهذه العوامل. لهذا يبقى الحكم على هاتين النقطتين، وبخاصة الأخيرة، مسألة رأي. لكن ارتباط اسم الحزب الجمهوري

* هربرت كلارك هوفر Herbert Clark Hoover (1874- 1964) الرئيس الحادي والثلاثون للولايات المتحدة (1929 – 1933). (م.)

بالازدهار والحفاظ عليه لا يمكن إنكاره، والرغبة بمجيء المهندس إلى السياسة هي رغبة عامة تكفي لتكون في الحد الأدنى دليلاً على ذلك.

النجاح والازدهار حالة عقلية على الأغلب، وكذلك الأمر في الإيمان بهذه الحالة. ومن هنا فإن التشكيك في مدى هذا الازدهار لا أهمية له عندما يكون التيار الفكري متوافقاً مع هذا الرأي. ومع أنه من الممكن تقديم الأرقام لتبيان مدى التفاوت البعيد عن العدالة في جودة وطريقة توزع الظروف الاقتصادية، إلا أنها جميعاً لا جدوى لها. وما الفارق الذي تصنعه هذه الأرقام إذا كان أحد عشر ألفاً من الناس، للفرد الواحد منهم دخل سنوي يزيد عن (100000) دولار حددت عام 1927 بما يعادل واحداً من خمسة وعشرين جزءاً من صافي الدخل القومي؟ وما الفائدة من ذكر أرقام رسمية تبين أن عشرين بالمائة فقط من دخل هؤلاء الأحد عشر ألفاً يأتي من رواتب وأرباح الأعمال التي يقومون بها شخصياً بينما تكون نسبة الثمانين بالمائة الباقية ناتجة عن استثمارات وأرباح مضاربات وإيجارات ... الخ؟ أما القول بأن إجمالي مكاسب ثمانية ملايين عامل يعملون بالأجر يجب أن يكون أربعة أمثال مبلغ عائدات ضريبة الدخل يسمى صراحة "الدخل غير المكتسب" للأحد عشر ألف مليونير فهو قول لا يعيره أحد اهتمامه. وعلاوة على ذلك فإن الدخل الناتج عن استثمارات في تجمعات شركات يزداد على حساب الدخل الناتج عن مشاريع

يـديرها أشـخاص. وأي فـرد يلفـت الانتبـاه إلى هـذا التنـاقض فـإن قوله هذا يعتبر قذفاً وتشهيراً بفرديتنا الفظة ومحاولـة لإثـارة شـعور طبقي. وفي غضون ذلك، تبين عائدات ضريبة الدخل لعام 1928 أن عـدد الأشـخاص الـذين يملكـون دخـلاً سـنوياً يزيـد عـن مليـون دولار قد ارتفع خلال سبع سنوات من سبعة وستين إلى ما يقارب خمسمائة، منهم أربعة وعشرون للواحد منهم دخل يزيد عن عشرة ملايين دولار.

ومع ذلك، فإن تولي حزب سياسي لمنصب راعي الازدهار يعني تحمل مسؤولية، وعلى المدى البعيد محاسبة هذا التجمع الاقتصادي السياسي الحاكم. لذلك يتعين على الأمراء أن يفعلوا شيئاً للوفاء بهذه المسؤولية. يبدو لي أن هذه الحقيقة ستكون مركز الوضع السياسي المستقبلي. وأن البحث في التطور السياسي المتوقع في مجال صناعة قائمة على الشركات قد يبدأ في أقله من حقيقة أن الصناعات التي كانت تعتبر أساسية وبأنها أسس الاقتصاد السليم قد تأثرت بالكساد. والجميع يعرف تلك الحالة المزرية للزراعة ولصناعات الفحم والنسيج. انتهى عهد التوسع الكبير لتمديد السكك الحديدية، وأما تجارة البناء فهي عمل كثير التقلب. أما الند لهذه الحقيقة فهو الصناعات المزدهرة حالياً والتي لها صلة بـ ونابعة من التطورات التقنية الجديدة. ولولا هذا النمو السريع في صناعة وبيع السيارات، وأجهزة الراديو والطائرات وغيرها، ولولا التطور السريع للاستعمالات الجديدة

للكهرباء والطاقة المتفوقة لما بقي الازدهار في السنوات القليلة الماضية حتى في كونه حالة ذهنية. لقد جاء الحافز الاقتصادي بصورة رئيسية من هذه الاستعمالات الجديدة لرأس المال والعمالة، والأموال الفائضة عنها أبقت سوق الأوراق المالية وأشكال العمل الأخرى مستمرة بنشاط. وفي الوقت عينه عملت هذه التطورات الأكثر حدة على تسريع التراكم وتركيز الثروات الكبيرة.

يبدو أن هذه الوقائع توحي بقضية السياسة المستقبلية. لقد أثرت حقيقة الكساد الاقتصادي بالفعل السياسي في كلا جانبيه التشريع والإدارة. فما الذي يحدث عندما تصبح صناعات هذه الأيام بدورها مثقلة الرأسمالية والاستهلاك لا يواكبها بما يتناسب مع الاستثمارات فيها، وعندما تكون هي أيضاً في حالة قدرة مفرطة في الإنتاج؟ يوجد الآن، كما تقول التقديرات، نحو ثمانية مليارات من مدخرات فائضة في العام وهي في حالة تزايد. أين يجد رأس المال هذا منفذاً له؟ التحول إلى سوق الأوراق المالية لا يشكل إلا انتعاشاً مؤقتاً، وأما التضخم الناتج فهو "شفاء" يخلق مرضاً جديداً. وإن أدخل في توسيع معامل الصناعات، فكم من الزمن يبقى قبل أن تصبح هذه المعامل في حالة "إنتاج مفرط"؟ يبدو أن المستقبل يخبئ توسعاً للسيطرة السياسية في الشأن الاجتماعي. نحن لدينا منذ زمن الآن بعض الهيئات مثل: هيئة التجارة بين الولايات Interstate Commerce Commission ومجلس الاحتياطي الفدرالي Federal Reserve Board، والآن

مجلس إغاثة المزارع Farm Relief Board وهي جميعاً مشاريع اشتراكية على نطاق واسع يرعاها حزب الفردية. أما الاحتمالات فتبدو في صالح إقامة المزيد من هكذا مجالس وهيئات في المستقبل بالرغم من كل ما يرافقها من استتكارات وشجب للبيروقراطية والإعلان الصريح بأن الفردية هي مصدر ازدهارنا ونجاحنا القومي.

مسألة التعرفة أيضاً تمر الآن بمرحلة تغيير. الصناعات القديمة التي تأثرت بالكساد هي الآن تصرخ طالبة الغوث. أما الصناعات "الوليدة" فهي تلك الصناعات المحايدة غير المكترثة التي بسبب اهتمامها المتزايد بالتصدير، فمن المحتمل أن تصبح أكثر حيادية أو ربما عدائية. لكن التغيرات الاقتصادية لم تصنع للآن توافقاً بين الأحزاب السياسية – أكثر من تشكل كتل متمردة داخل الأحزاب القديمة. وهذه الحقيقة تخفي عن الأنظار الحقيقة الأكبر بأن التشريع والإدارة وبغطاء من الأحزاب القديمة قد اتخذا وظائف جديدة بسبب تأثير التجارة والمال. والمثال الصارخ لذلك بالطبع هو الجهد المبذول لاستخدام الجهات الحكومية وأموال عامة كبرى لوضع الزراعة على قدم المساواة مع الأشكال الأخرى للصناعة. وتزداد أهمية هذه القضية بسبب أن المزارعين اليوم يشكلون ذلك القسم من السكان الذين ظلوا الأكثر وفاء وإخلاصاً لفلسفة الفردية القديمة، ولأن الحركة متجهة تحديداً لجعلهم ضمن نطاق العمل الجمعي والشركاتي. أما سياسة

استخدام الأشغال العامة للتخفيف من البطالة في أوقات الكساد فهذه مجرد إشارة أخرى، وإن كانت أقل من الأولى، للتوجه الذي يتخذه العمل السياسي.

بيد أن مسألة ما إذا كانت الصناعات الجديدة سوف تتبع دورة الصناعات القديمة والكاسدة الآن، وإلى أي مدى ستصبح مثقلة برأس المال ومفرطة القدرة الإنتاجية، ومثقلة بتكاليف باهظة فهي بالطبع مسألة تكهن وتحزر. فالجانب السالب للحجة يتطلب كثيراً من التفاؤل. إنما يمكن القول بشيء من الجزم المعقول إذا أصابها كساد فسوف تتكرر عملية التدخل الحكومي والرقابة الحكومية. وعلى أية حال لا شيء يمكنه أن يستبعد بصورة دائمة العمل السياسي بخصوص الشيخوخة والبطالة. وقد تأكد حالياً هذا الغياب الفاضح للتحقيق والإحصاءات الحكوميين من خلال عزل العمال وتنحيتهم بسبب التطورات التقنية ومن خلال خفض سقف السن الناجم عن تسارع العمليات حيث يمكن توظيف العمال بشكل مريح. وأما البطالة، بهذا المعدل القائم الآن "عادة" – دون الحديث عن حجمها أثناء الفترات الدورية للكساد – فهي اعتراف بانهيار الصناعة الفردية غير المنظمة الجارية بهدف الربح الخاص. قد لا يهتم أحد بعمال المناجم وحتى بالمزارعين، إنما ثمة اهتمام بعمال المدن الصناعية. وسوف تكون واحدة من أول علامات صحوة الحركة العمالية العدائية إثارة مشكلة البطالة لتصبح قضية

سياسية. وستكون نتيجة ذلك مزيداً من توسع الرقابة الحكومية.

إن أي تنبؤ سياسي عمل لا يخلو من الأخطار وأنا لا أرغب بخوض مغامرة الدخول في التفاصيل. ومع ذلك هنالك تيارات اقتصادية أساسية وكبيرة لا يمكن تجاهلها في أي مدة زمنية مهما طالت، وهي جميعاً تعمل باتجاه واحد. وهنالك دلالات كثيرة على أن النزعات الرجعية التي سيطرت على السياسة الأمريكية قد وصلت إلى حدودها. أما التوزيع غير العادل للدخل فسوف يضع في المقدمة موضوع استخدام سلطة فرض الضرائب لتعمل على إعادة التوزيع من خلال فرض ضرائب مرتفعة على الدخل المتضخم، ومن خلال فرض رسوم مرتفعة أيضاً على التركات إن كانت الثروات كبيرة. وبهذه الحالة لا يمكن أن تبقى للأبد دون أن يكشفها أحد فضيحة الاستيلاء الخاص على القيم المنتجة اجتماعياً للأراضي غير المستعملة. فقد بدأت وضعية الإنتاج والتجارة العالميين تعطي معاني جديدة كلياً لـ "الحماية وحرية التجارة". لذلك سوف تظهر للعلن وسيجري الاعتراف عموماً بتلك الصلة بين سوء الإدارة البلدية والفساد والامتيازات الخاصة المعطاة لذوي المصالح الاقتصادية الكبرى، وأيضاً للصلة بين التحالفات الناشئة على هذا النحو والجريمة. لقد تزايدت كثيراً مشاعر سخط الهيئات العمالية المحلية على سياسة عدم التدخل السياسي وعلى مهزلة العمل من خلال أحزاب تسيطر

عليها اهتمامات مناوئة. والحركة تراكمية وتشتمل على التلاقي عند رأس مشترك لعوامل كثيرة هي الآن منعزلة. وعندما يتم التوصل إلى وضوح الرؤية وتصبح القضايا الاقتصادية قضايا سياسية مكشوفة وليست مجرد قضية سياسية خفية أو مقنّعة. إن مشكلة الرقابة الاجتماعية على الصناعة واستخدام الجهات الحكومية لغايات اجتماعية بنّاءة سوف يصبح المركز المعلن للصراع السياسي.

لقد تم تخصيص فصل مستقل للمرحلة السياسية لهذه الحالة ليس لأن ثمة افتراضاً بأن مكان العمل السياسي المحدد حيث يجري حل هذا الانقسام الراهن في الحياة هو الأساسي، بل هو المساعد. قدر معين من تغيير محدد في التشريع والإدارة أمر مطلوب بغية توفير الظروف التي من خلالها قد تحدث تغيرات أقوى بطرائق غير سياسية. إضافة لذلك، ثمة تأثير نفسي كبير جداً للقانون والنقاش السياسي، والعمل السياسي يقدم نماذج بمقياس كبير لردود الفعل إزاء تكون الآراء والمثل العليا بخصوص مسائل اجتماعية. وإحدى هذه الطرق التي بها قد يسترد فيها الفرد الضائع سياسياً بسبب فقدان الأهداف التي بها ترتبط ولاءاته، ذهناً هادئاً رابط الجأش، تتمثل في إدراك واقع الصناعة والمال وعملهما في الحياة العامة والحياة السياسية. وأما عدم الاكتراث السياسي الذي طبع تفكيرنا لسنين عدة خلت فتعود أسبابه الأساسية إلى ذلك التشوش الذهني الناشئ عن فقدان

الشعور بأي صلة حيوية بين السياسة والشؤون اليومية. كانت الأحزاب شركاء متلهفين في الحفاظ على هذه التشوش والبعد عن الواقع. لهذا فإن معرفة كيف تسير الأمور وإلى أين وأسباب وجودها يعني أن تكون لدى المرء المادة التي منها تتشكل الأهداف الثابتة للغايات والولاءات. كما أن رؤية حركة الأحداث الفعلية بوضوح وجلاء فيعني أن يكون المرء على الطريق الصحيح للوضوح الفكري والنظام.

تتمثل القيمة الرئيسية للمرجع السياسي بحقيقة أن السياسة تمثل على نحو جيد ذلك التشوش الاجتماعي القائم وأسبابه. أما التعابير المختلفة عن الرقابة الحكومية التي سبقت الإشارة إليها فقد حدثت على نحو متقطع واستجابة لضغوط جماعات فقيرة كبيرة جداً كان ثمة حاجة لقوتهم الانتخابية. وكانت تعابير مرتجلة لتلائم مناسبات خاصة. ولم يجر تبنيها لتكون أجزاء لسياسة اجتماعية خاصة. وبالتالي، لم تؤخذ أهميتها الحقيقية في الاعتبار، فعوملت على أنها استثناءات عرضية. ونحن سياسياً نعيش لنأكل. أما قوى الشركات فتتمتع بالقوة الكافية لتأمين الاهتمام والعمل في كل حين وتحديداً عندما تفرضها حالة طارئة علينا، لكن الاعتراف بها لا يعني استلهام سياسة مترابطة منطقياً. أما الفردية القديمة، من جهة أخرى، فهي لا تزال راسخة على نحو كاف يخولها اكتساب الولاء من مشاعر مشوشة ومن خلال التعبير اللفظي. وهي باقية وثابتة إلى درجة أننا نستطيع

الاحتفاظ بوهم أنها تنظم فكرنا وسلوكنا السياسيين. وفي الحقيقة، يعني اللجوء إليها تكريس انعدام التنظيم الحالي حيث تستطيع السلطة الصناعية والمالية، المنظمة بشركات أن تحرف النتائج الاقتصادية بعيداً عن مصلحة الكثيرين لمجرد أن تخدم مصلحة القلة القليلة.

ليس لي علم بأي حدث حصل مؤخراً وكان مثيراً للاهتمام سياسياً مثل ذاك الذي فعله الرئيس هوفر Hoover بدعوته لمؤتمرات صناعية بعد انهيار سوق الأوراق المالية عام 1929. فهذا الحدث له دلالات على أشياء كثيرة، بعضها حقيقي فعلي وبعضها الآخر ممكن على نحو مبهم وبعيد عن الوضوح. وهو يؤكد ذلك الانزعاج الناشئ عندما يحصل كساد صناعي بمواجهة حزب وإدارة تحمّلا مسؤولية الازدهار الاقتصادي من خلال ادعائهما بالفضل في ذلك. كما أنه يؤكد أهمية سيكولوجيا الجماهير بخصوص سذاجة الحياة الأمريكية وأثرها الضئيل. العلم النصراني* يحكم الفكر الأمريكي في

* العلم النصراني Christian Science عقيدة يؤمن أصحابها بأن الخطيئة والمرض والموت يمكن القضاء عليها بفهم تعاليم المسيح فهماً كاملاً، أو هو طريقة في معالجة أدواء الجسد والعقل. مؤسس هذا العلم هو ماري بيكر ايدي Mary Baker Eddy عام 1866، وتبني تعاليمها على الكتاب المقدس كما يفهمه أتباع هذه العقيدة. أما الاسم الرسمي لهذا التنظيم فهو "كنيسة المسيح، العلماء "Church of Christ, Scientists. (م.)

شؤون الأعمال، فإذا أقنعنا أحد للتفكير بأن أشياء معينة غير موجودة فهي حكماً لم تحدث. وهذه المؤتمرات تقدم لنا أيضاً برهاناً أكيداً لعاداتنا الوطنية المتسمة بانعدام التخطيط في الشؤون الاجتماعية، وبإغلاق باب الحظيرة بإحكام جيد بعدما يُسرق الحصان. لا شيء يُتخذ أو يُنفذ عملياً إلا بعد حصول الانهيار الذي كان كل عالم اقتصاد يعرف بأنه سوف يحدث لكن أحداً لم يكن متأكداً من توقيته، ما عدا أولئك الاقتصاديين الملتزمين بمبدأ "عهد اقتصادي جديد."

لكن المعنى الأكثر غموضاً لهذه المؤتمرات له صلة بالتطورات المستقبلية. ومن الواضح أن واحدة من أهم وظائفها كانت تقضي بإضافة حقول جديدة في جداول الأرقام لفرض حاصل جمع يكون له تأثيره في خيال العامة. فهل هناك أكثر من ناتج سيكولوجي وحسابي؟ النفس المتفائلة قد تفهم هذا على أنه بداية التطبيق الفعلي لذهن المهندس في الحياة الاجتماعية بمرحلتها الاقتصادية. وقد تقنع نفسها بأنه بداية قبول السياسيين وجماعة الصناعة والمال الأمريكيين بالمسؤولية الاجتماعية على نطاق واسع. وقد تتصور وجود مجلس اقتصادي دائم ينشأ عن عقد سلسلة من المؤتمرات، مجلس يأخذ على عاتقه تنسيق التطور الصناعي عبر التخطيط. وربما تكون هذه النفس متفائلة كثيراً لتتوقع زمناً يلتقي فيه ممثلو العمال على قدم المساواة ليس من أجل الحصول على تعهد بالامتناع عن القيام بجهود للحصول على

زيادات في الأجور وعن القيام بالإضراب وإنما في كونهم جزءاً لا يتجزأ من جهود الحفاظ على تنظيم جرى التخطيط له لقواعد الرفاه القومي.

لكن القضية ما زالت مستقبلية وغير أكيدة. إنما ما هو ليس غير أكيد هو أن أي تحرك كهذا ، إن نُفّذ ، فسوف يشكل نهاية حقبة سياسية واجتماعية قديمة مع فلسفتها السائدة يقر الجميع بها. وستكون متوافقة مع روح الحياة الأمريكية إذا أنجزت هذه الحركة بتوافق وجهد طوعيين بدلاً من الإكراه الحكومي. يوجد في فرديتنا كل هذه الحقائق الدائمة. لكن النتيجة سوف تتضمن بالتأكيد إدخال المسؤولية الاجتماعية في منظومة الأعمال لدينا إلى درجة لا بد أن يتبعها هلاك صناعة الربح المالي الحصري. عندئذ سيكون المجلس التنسيقي والتوجيهي الذي فيه يلتقي ربابنة الصناعة والمال مع ممثلي العمال والمسؤولين الحكوميين لوضع خطط تنظم النشاط الصناعي وتكون مؤشراً بأننا قد وضعنا بشكل طوعي وبنّاء أولى خطواتنا على الطريق الذي تسير عليه روسيا السوفياتية وما يرافق ذلك من دمار وإكراه. وبرغم أن العمل السياسي ليس أساسياً ، كما ذكرت أنفاً ، إلا أن تركيز الاهتمام على القضايا الحقيقية والحيوية مثل مراقبة حكومية للصناعة والمال لصالح القيم الاجتماعية ستكون له ارتدادات فكرية وعاطفية عظيمة الاتساع. ولن تبقى أي مرحلة في ثقافتنا دون أن تتأثر بذلك.

فالسياسة وسيلة وليست غاية. لكن التفكير بها على أنها وسيلة سوف يؤدي إلى التفكير بالغاية التي تخدمها هذه الوسيلة. وسوف يحفز التفكير بالطرق التي بها يمكن تحقيق الحياة الجديرة والثرية للجميع. ومن خلال ذلك سوف تستعيد الأهداف التوجيهية. وستكون خطوة هامة للأمام في استعادة الفردية الموحّدة.

لقد حاولت أن أقدم عرضاً موجزاً لاحتمالات الموقف السياسي عموماً، دون أن أطلق دعوة أو نبوءة للاصطفافات السياسية الخاصة. لكن أي نوع من محاولات استيلاد سياسي داخل أو بدون الأحزاب الحالية يتطلب بادئ ذي بدء اعترافاً فكرياً صريحاً بالميول والنزعات الراهنة. ففي مجتمع يسير سريعاً ليصبح موحداً وشركاتياً توجد حاجة لفكر موحد يأخذ في الاعتبار واقع الوضع ويؤطر السياسات في الصالح الاجتماعي. وعندئذ فقط يستطيع العمل المنظم في خدمة الصالح الاجتماعي أن يصبح واقعاً. فنحن دخلنا في نوع من الاشتراكية، سمّها إن شئت بأي اسم تشاء، لا يهم بم تُسمى عندما تتحقق. فالحتمية الاقتصادية باتت الآن حقيقة، وليست نظرية. وثمة بالتأكيد فرق وخيار بين حتمية عمياء هيولية دون تخطيط تصدر عن أعمال تتم بهدف الربح المالي وحتمية لتطور مخطط ومنظم اجتماعياً. إنه فرق وخيار بين اشتراكية تكون عامة واجتماعية واشتراكية تكون رأسمالية.

الفصل السابع

أزمـــة الثقافـــة*

كثيرة هي المناقشات الجارية حول حالة الثقافة الأمريكية وآفاقها. لكن كلمة "الثقافة" كلمة يكتنفها شيء من الغموض والالتباس. أما فيما له صلة بأحد معانيها فإنني لا أرى سبباً يدعو للتشاؤم. فالاهتمام بالفنون والعلوم والفلسفة ليس في تضاؤل وانحسار، بل العكس هو الصحيح. قد يكون ثمة أفراد تفوقوا في إنجازاتهم بالماضي لكنني لا أعلم عن فترة في تاريخنا كان فيها كثيرون على علاقة نشطة من حيث كونهم منتجين أو معجبين بتلك المظاهر التي بلغت أوجها في الحضارة. أما اليوم فيوجد اهتمام أكثر حيوية وأرحب اتساعاً من ذي قبل بالأفكار، والمناقشة الناقدة، وكل ما يكوّن الحياة الفكرية.

---

* لنشرت لأول مرة في مجلة New Republic 62 بتاريخ 1930/3/19م.

وكل من يستطيع أن ينظر إلى الوراء قليلاً لفترة تمتد لثلاثين أو أربعين عاماً يشعر بالفارق الذي صنعه جيل من الأفراد. والحركة في تقدم للأمام، وليست متراجعة للوراء.

أما الثقافة من حيث كونها تهذيباً وتثقيفاً لعدد من الأفراد، فهذا العدد في تزايد وليس في تناقص، ولا أرى سبباً يدعو لأي قلق كبير. لكن للثقافة معنى آخر. هو معنى يدل على نوع العاطفة والأفكار التي تكوّن خصائص شعب وخصائص حقبة من الزمن عموماً، ألا وهو النوعية الفكرية والأخلاقية العضوية. قد يقول المرء دون أن يثير سؤالاً مبهماً عن الارستقراطية، ودون خوف من إنكار ورفض إن درجة عليا من التهذيب الشخصي في قمة المجتمع يمكن أن تتعايش مع حالة وضيعة وغير جديرة للثقافة تكون إظهاراً واسع الانتشار للحياة الاجتماعية. وخير دليل على ما أعنيه هو ذلك الإنجاز الرائع للرواية والموسيقا والمسرح في روسيا القيصرية. ولا يشكل الاهتمام المفرط بالتجارة والثروة حاجزاً لا يمكن تخطيه أمام ثقافة آخذة بالازدهار. ويمكن الاستشهاد أيضاً بتلك المرحلة التي بلغ الرسم والتصوير فيها أعلى مراحله في هولندا حين شهد ذلك التوسع. وهذا ما يمكن قوله أيضاً في عصر بيريكليس* وعصر أوغسطس** والعصر

* عصر بيريكليس Pericles (495؟ - 429 ق.م) حيث بلغت أثينا أوج ازدهارها السياسي والثقافي (م.)

** عصر الامبراطور اغسطس Augustus Caesar الروماني (27 ق.م – 14م) حيث بلغ الأدب الروماني أعلى درجات الصفاء وهو العصر الذهبي للأدب الروماني (م.)

الاليزابيثي*. فكان التميّز في الثقافة الشخصية، في كثير من الأحيان وربما على نحو اعتيادي، متزامناً، ومتوافقاً مع الهيمنة السياسية والاقتصادية للقلة من الناس وتخللها أيضاً فترات من التوسع المادي.

ولا أرى ما يدعوني للتساؤل لماذا لا يكون لدينا نحن أيضاً في الولايات المتحدة عصر ذهبي للآداب والعلوم. لكننا اعتدنا أن ننظر إلى هذا "العصر" أو ذاك بما يحمله من أسماء عظيمة لها إنتاجية عظيمة، وننسى أن نسأل عن جذور ذلك الازدهار الظاهر على السطح. ألا يمكن القول بأن مجرد سرعة أفول أمجاد تلك العصور دليل واضح بأن أسبابها كانت عابرة أو مصادفةً؟ وعلى أية حال يمكن طرح السؤال حول نمو الثقافة المحلية الأصلية في بلدنا. فكرة الديمقراطية هي بلا شك فكرة يكتنفها الالتباس مثل الارستقراطية. ومع ذلك لا يمكننا أن نتجاوز قضية أساسية ذلك أنه ما لم يوجد شعب ديمقراطي وعصر صناعي يمكن أن ينجز شيئاً يكون أكثر من "عصر" لثقافة وتهذيب شخصي عال، فإن ثمة خللاً في ثقافة العصر يمتد إلى الأعماق. وسيكون هكذا عصر أمريكياً بالمعنى الطوبوغرافي وليس بالمعنى الروحي.

---

* عصر الملكة اليزابيث الأولى Elizabeth I (1533 – 1603) ملكة انكلترا وايرلندا (1558 – 1603) ويعتبر عصرها من أزهى العصور في التاريخ الانكليزي. (م.)

هذه الحقيقة تعطي أهمية لمسألة كثيراً ما كانت تطرح بخصوص ما إذا كانت القوى المادية والميكانيكية لعصر الآلة سوف تسحق الحياة العليا. لكنني وكما قلت سابقاً لا أجد خطراً خاصاً في أي من هذه المعاني. سوف يظهر بالتأكيد شعراء ورسامون وروائيون ومسرحيون وفلاسفة وعلماء وسوف يجدون جمهوراً يقدر أعمالهم حق قدرها. لكن الحقيقة الفريدة في حضارتنا هي أنها إذا كان لها أن تظهر وتحقق ثقافة خاصة بها فيجب أن تتطور، ليس على متن طبقة صناعية وسياسية وإنما تتبع من حضارتنا المادية عينها. وسوف تأتي من خلال تحويل عصر الآلة إلى اعتياد وسلوك جديدين للفكر والعاطفة، وخلاف ذلك لن تأتي البتة. أما تثقيف وتهذيب طبقة تعمل على تزيين وزخرفة خارجيين لحضارة مادية فلن يكون ذلك إلا تكراراً لنوع الأشياء التي حدثت وغابت مرات كثيرة في الماضي.

فالمسألة إذن ليست مجرد مسألة الكم. وليست مسألة زيادة في أعداد الأشخاص الذين يشاركون في خلق الفنون والعلوم والاستمتاع بها. بل هي مسألة النوعية. فهل يمكن تحويل حضارة مادية صناعية إلى قوة مميزة لتحرير عقول وتهذيب عواطف ومشاعر كل الذين يشاركون فيها؟ فالمسألة الثقافية مسألة سياسية واقتصادية قبل أن تكون مسألة ثقافية بحتة.

من المألوف القول إن إشكالية علاقة الحضارة الميكانيكية والصناعية بالثقافة هي الأعمق والأكثر إلحاحاً في عصرنا هذا. وإذا صح قول المفسرين بأن "الأمركة" باتت اليوم عالمية فهذه إذن مشكلة العالم كله وليست فقط مشكلتنا نحن – مع أننا خبرناها هنا بكل ما فيها من قسوة. وهي اليوم تثير قضايا ذات أهمية فلسفية واسعة. وفي هذا الإطار تكتسب مسألة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وبين الفكر والمادة، أهمية حيوية بالغة. وهنا نجد أن "الإنسانية" (humanism) التي تفصل الإنسان عن الطبيعة تقدم حلاً للتعقيدات الصناعية والاقتصادية لهذا العصر يختلف جذرياً عن الحل الذي تقدمه الفلسفة الإنسانية التي يقبل بها أولئك الذين لا يجدون فجوة لا يمكن عبورها أو ثغرة ثابتة. فالحركة الإنسانية الأولى تنظر إلى الوراء وتستعين بالماضي لمعرفة الاتجاه، وتكافح لوجود نخبة مثقفة محمولة على ظهور جماهير كادحة. أما الحركة الإنسانية الثانية فعليها أن تواجه مسألة ما إذا كان العمل نفسه يمكن أن يصبح أداة ووسيلة للثقافة، وكيف تستطيع الجماهير أن تتشارك بملء حريتها في حياة يغنيها الخيال ومتعة الجمال. وقد تحددت هذه المهمة الشاقة ليس بسبب إنسانية خيّرة (humanitarianism) عاطفية بل لكونها الاستنتاج الضروري للقناعة الفكرية بأن الإنسان برغم كونه ينتمي للطبيعة والعقل فهو متصل بالمادة، فإن

الإنسانية وذكاءها الجمعي هي الوسيلة التي بها يجري توجيه الطبيعة نحو إمكانيات جديدة.

هنالك نقاد أوروبيون كثر يحكمون على الحياة الأمريكية من وجهة نظر ثنائية الروح والمادة، ويستهجنون أولية المادي على أي ثقافة بحكم أنه مقدر ومحتوم. لكنهم لم يروا عمق ومدى مشكلتنا المتمثلة في جعل المادة أداة فعالة لخلق حياة للأفكار والفنون. وهنالك نقاد أمريكيون كثر في المشهد الحالي منشغلون في تخطيط ورسم طرائق للهروب. بعضهم هرب إلى باريس أو فلورنسا، وآخرون جنحوا في خيالهم نحو الهند وأثينا أو نحو العصور الوسطى أو العصر الأمريكي الذي عاش فيه الشاعر إيمرسون Emerson والروائيان ثورو Thoreau وميلفيل Melville. الهروب حل من خلال التهرب والتملص. وأما العودة إلى ثنائية مركبة من طبقة هائلة من المادة تبنى عليها واجهات مزخرفة بالروحانيات، فهي مستحيلة، إلا إذا كانت عقاباً على هيئة حرمان روحي لأولئك المحكومين أبداً للكدح آلياً أمام الآلة.

أما القول بوجوب التوصل إلى الإشكالية الثقافية عبر طرق اقتصادية فهو قول يؤكده نظامنا التعليمي. لا توجد أمة التزمت بقوة بالتعليم العام كالشعب الأمريكي. لكن السؤال الذي يطرح نفسه ما هو هدف نظامنا هذا؟ وما الغاية التي يصبو إليها؟ أما القول بأنه يوفر الفرصة لأولئك الذين حرموا منها فهذا قول لا

يستطيع أحد إنكاره. بالإضافة إلى ذلك فهو البوتقة التي فيها تنصهر العمليات جميعاً وتندمج. وهذه العمليات هي ظروف خلق عقل يكون مستقبلاً النوع المميز للثقافة. لكنها مجرد ظروف لا أكثر. إذا أنتج نظام مدارسنا العامة مجرد علف صناعي فاعل وعلف مواطنة في دولة تحكمها صناعة المال، مثلما أنتجت مدارس أخرى في بلدان أخرى علفاً فاعلاً للمدافع، فهو نظام لا يساعد في حل مشكلة بناء ثقافة أمريكية مميزة، بل يكون مجرد نظام يفاقم المشكلة. والذي يمنع المدارس من أداء عملها التعليمي بحرية هو بلا ريب ضغط هيمنة فكرة المال في نظامنا الاقتصادي – وهو ضغط غير مباشر في معظمه بكل تأكيد. لكن الموضوع أكبر كثيراً من أن يتسع له المجال في هذا المقام. إنما يمكن القول إن السمة المميزة لجسم الطلبة الأمريكي في الجامعات هو نوع من اللانضج الفكري. وهذا اللانضج يعود بشكل رئيسي إلى الانعزال الفكري المفروض عليهم، ففي تعليمهم لا يوجد اهتمام حر بالمشاكل الاجتماعية الكامنة في حضارتنا. ودليل آخر على ذلك نجده في تدريب المهندسين وقد أشار العالم ثورستاين فبلن* – وكرر كثيرون ما قاله – إلى الموقع الاستراتيجي الذي يحتله المهندس في نشاطنا الصناعي

* ثورستاين فبلن Thorstein Veblen (1857 – 1929) اقتصادي وعالم اجتماع أمريكي تحدث عن الصراع الجوهري بين تقديم السلع وكسب المال. (م.)

والتكنولوجي. كليات الهندسة تقدم تعليماً وتدريباً ممتازين للمهندسين. ولكن أين هي الكلية التي تولي اهتماماً ممنهجاً للوظيفة الاجتماعية المحتملة لمهنة الهندسة؟

إنني أشير هنا إلى الكليات بخصوص هذه المشكلة في الثقافة الأمريكية لأنها هي الواسطة الرسمية لإنتاج تلك المواقف الفكرية وطرائق الشعور والتفكير التي تشكل جوهر ثقافتنا المَميزة. لكنها ليست القوة التشكيلية النهائية. المؤسسات الاجتماعية وتوجهات المهن ونمط الترتيبات الاجتماعية هي المؤثرات ذات التحكم النهائي في تشكيل العقول. وهذا اللانضج الذي تغذى في المدارس والجامعات ينتقل إلى الحياة. وإن ظهر لدينا نحن الأمريكيين نوع من الطفولية infantilism، بالموازنة مع أمثالهم في بلدان أخرى نالوا قسطاً وافراً من التعليم العالي، فالسبب أن نظامنا التعليمي يتجنب الخوض في الدراسة الجادة للقضايا الأعمق في الحياة الاجتماعية، والعقل لا ينضج إلا من خلال استقراء الواقع كما هو. وبالتالي، فالتعليم الفاعل والمؤثر، أو ذاك الذي يترك بصمة في شخصية المرء وفكره لا يمكن الحصول عليه إلا عندما يخرج خريجو الجامعات ليشاركوا في أنشطة مجتمع الكبار الذي يبالغ في التأكيد على الأعمال وعلى نتائج النجاح في الأعمال. فهذا الطراز من التعليم هو في أحسن حالاته أحادي الجانب، يعمل على خلق "عقل صناعي" متخصص، وهذا بدوره يظهر بجلاء في أوقات الفراغ وفي الأعمال ذاتها على

حد سواء. أحادية الجانب هذه تتأكد وتبرز بسبب لا علائقية التعليم المأساوية مع واقع الحياة الاجتماعية المسيطر. ليس ثمة إعداد لإحداث مقاومة صلبة ونقد تمييزي أو حتى رؤية ورغبة لتوجيه القوى الاقتصادية نحو قنوات جديدة.

ثم، إن كنت قد انتقيت التعليم بالخصوص فذلك لأن التعليم – بمعناه الواسع لتكوين المواقف الأساسية للخيال والرغبة والتفكير – شديد الارتباط بالثقافة بمعناها الاجتماعي الشامل. وأيضاً لأن تأثير المؤسسات السياسية والاقتصادية التعليمي هو في التحليل النهائي أكثر أهمية من التبعات الاقتصادية المباشرة. والفقر الذهني الناتج عن التشويه أحادي الجانب للعقل هو في نهاية المطاف أكثر أهمية من الافتقار إلى السلع المادية. لكن إطلاق هذا التأكيد لا يعني تلميع القسوة المادية الموجودة. بل لمجرد الإشارة بأنه في ظل الظروف الراهنة لا يمكن فصل هذه النتائج المادية عن تطور العقل والشخصية. الفقر والعوز من جانب والثروة من جانب آخر هما العاملان الفاعلان في تقرير ذلك التكوين السيكولوجي والأخلاقي الذي يشكل مصدر ومقياس الثقافة المتحققة. لا أستطيع أن أفكر بشيء أكثر عبثاً طفولية، على سبيل المثال، من محاولة جلب "الفن" ومتعة الجمال خارجاً إلى جماهير كادحين يعملون في أكثر البيئات قبحاً، ويغادرون معاملهم القبيحة متوجهين عبر شوارع كئيبة ليأكلوا ويناموا وليتابعوا أعمالهم المنزلية في بيوت قذرة كئيبة. غير أن اهتمام

جيل الشباب بمسائل الفن والجمال إشارة تدعو للتفاؤل لتنامي ثقافة في معناها الضيق. لكنها إشارة سرعان ما تتحول إلى آلية للهروب ما لم تتطور لتصبح اهتماماً يقظاً في الظروف التي تحدد البيئة الجمالية لجماهير واسعة يعيشون الآن ويعملون ويلعبون في بيئات تفسد أذواقهم بحكم الضرورة وتعلمهم بصورة لا شعورية الرغبة في الحصول على أي متعة طالما أنها "مثيرة" وزهيدة الثمن.

إن عمل علماء الاجتماع والنفس والروائيين والمسرحيين والشعراء أن يبرزوا ويظهروا للعلن تبعات نظامنا الاقتصادي الحالي على الذائقة والرغبة والرضا ومعايير القيمة. مقال من هذا النوع لا ينجز عملاً يحتاج لمجلدات. لكن فقرة واحدة تكفي لتوجيه الاهتمام لحقيقة محورية واحدة. فمعظم الذين ينخرطون في عمل خارجي لإنتاج وتوزيع السلع الاقتصادية لا يملكون نصيباً – خيالياً أو فكرياً أو عاطفياً – في إدارة الأنشطة التي يشاركون فيها جسدياً.

ذكرت في فصل سابق أنه يوجد تقييد محدد مفروض على حالة الشركاتية القائمة. وهو موجود في حقيقة تقول إن الروابط الاقتصادية مثبتة بطرائق تستبعد معظم العاملين فيها عن المشاركة في الإدارة. ومما لا شك فيه أن إخضاع المشاريع والأعمال للربح المالي يفعل فعله في جعل العاملين مجرد "عمال مستخدَمين" فقط. قلوبهم وعقولهم لا تنهمك بالعمل. هم ينفذون

الخطـط الـتي لا يـضعونها والـتي يجهلـون معانيهـا ومقاصـدها – وذلك عدا عن أن هذه الخطط تصنع الربح للآخرين وتؤمن الأجور لهم. أمـا الحـديث عـن تبعـات هـذه الحقيقـة علـى تجـارب وعقـول جماهير لا حصر لها فقد يحتـاج أيضاً لمجلدات . وبـرغم ذلـك فـإن ثمـة حـدوداً لا يمكـن إنكارهـا للفـرص، وأمـا العقـول فتفـسد وتحـبط وتبقـى دون تغذيـة بـسبب نـشاطهم – وذلـك المـصدر الأول والأخـير لكـل تغذيـة مـستمرة للـروح. أمـا رأي الفيلـسوف القائـل بالفصل الكامل بين العقل والجسد فقد تحقق في الآلاف المؤلفة مـن العمـال الـصناعيين والنتيجـة جسد حـزين كئيـب وعقـل فـارغ ومشوه.

توجـد أمثلـة مـن هنـا وهنـاك للآثـار الفكريـة والأخلاقيـة الناشـئة عنـدما يـستطيع العمـال أن يـستخدموا مـشاعرهم وتـصوراتهم بالإضـافة إلى عـضلاتهم فيمـا يفعلون. ولكـن لا يـزال مـن المحـال أن يتنبـأ المـرء بتفاصـيل مـا قـد يحـدث لـو أن نظامـاً للتحكم التعاوني في الصناعة قد حل محل النظـام الحـالي القـائم علـى الإقـصاء. سيـكون ثمـة تحريـر هائـل للعقـل، والعقـل المتحـرر سيـكون لـه توجيـه وإنعـاش دائمـين. سـوف تنـشأ رغبـة بالمعرفـة المادية والاجتماعيـة ذات الـصلة وسـتجد مـا يثيبهـا ، وسـوف ينـشأ الطلـب علـى المبـادرة والمسؤولية وسـوف يتحقـق. ربمـا لـن يكـون مطلوباً من المرء أن يتنبأ بأن نشوء ثقافة اجتماعية متميزة قد تنـتج عن ذلك من فورها. ولكن قد يقول وبلا تردد إننا لن نحـصل علـى

تهذيب وتثقيف شخصي لطبقة معينة، ولا لثقافة أمريكية خاصة إلا إذا تحقق هذا الشرط، إذ يستحيل على مجتمع صناعي متطور أن يحقق تميزاً للذهن يكون رفيعاً وواسع النطاق عندما تستبعد جماهير كادحة عن مناسبة يستعملون فيها العقل والعاطفة في أعمالهم اليومية. فالتناقض كبير وواسع الانتشار حتى لتكاد القضية الملائمة تكون ميئوساً منها. يجب علينا أن ننتزع ثقافتنا العامة من الحضارة الصناعية، وهذه الحقيقة ترمز إلى أن الصناعة ذاتها يجب أن تصبح القوة الثقافية والتعليمية الأولى لأولئك الذين ينخرطون فيها. وأما التصور القائل بأن العلم الطبيعي يضع بطريقة أو بأخرى حدوداً للحرية، ويخضع الناس لضرورات محددة ثابتة فليس المنتج الجوهري للعلم. ومثلما كانت الفكرة السائدة سابقاً بأن الفن ترف، وموقعه اللائق به هو المتاحف وصالات العرض كذلك هي فكرة الأدباء (بما فيهم الفلاسفة) القائلة بأن العلم اضطهاد مطبق على البنية المادية للطبيعة فما هي إلا انعكاساً لظروف اجتماعية كان العلم فيها يطبق بحيث لا يؤدي إلا إلى نتائج مالية. للمعرفة آثارها على الآلة وعلى عقول المدراء الفنيين، ولكن ليس في أفكار أولئك الذين يعتنون بالآلات. وما تلك الجبرية fatalism المزعومة للعلم إلا عملياً جبرية للنظام المالي الذي فيه يجري استخدام العلم.

إن كنت قد أكدت على الأثر الواقع على العمال بالأجر فذلك لأن النتائج ليست واضحة على قدم المساواة بخصوص تلك

القلة من الناس الذين يستمتعون الآن بالتعويضات المادية لهذا النظام ويحتكرون إدارته والتحكم فيه. سوف يوجد دوماً وبكل تأكيد قادة، هم أولئك الذين يملكون النصيب الأكبر والأنشط في التوجيه الفكري للأعمال الصناعية الكبرى. ولكن طالما بقيت الإدارة أكثر اهتماماً بالربح المالي من المنفعة الاجتماعية فسوف يظل التطور الفكري والأخلاقي الناتج مشوهاً وأحادي الجانب. فالنتيجة الحتمية للتحكم التعاوني المشترك للصناعة سيكون الاعتراف بأن الاستخدام النهائي والاستهلاك هما معيار التقييم والقرار والإدارة. وعندما تكون وجهة نظر الاستهلاك هي الأعلى في الصناعة فسوف تصبح الأخيرة أكثر قرباً اجتماعياً وإنني لا أرى طريقة لتأمين ذلك التشارك الاجتماعي سوى النظر إلى الصناعة وإدارتها من وجهة نظر المستخدم ومن يستمتع بخدماتها وسلعها. عندئذ يمكن للقيم الإنسانية أن تتحكم بالقيم الاقتصادية. بل ونضيف طالما أن الوسيلة بقيت منفصلة ومعزولة عن الغايات الإنسانية (النتائج التي يفرزها العيش الإنساني)، فإن "القيم قيد الاستخدام" سوف تهيمن عليها التبادلات أو قيم البيوع بحيث تفسر الأولى بالثانية. وهذا يعني أنه لا يوجد الآن معيار كامن لقيم الاستهلاك. "الثروة" كما يقول راسكين* جازماً، تتضمن الكثير من العلل مثلما تتضمن

---

* جون راسكين John Ruskin (1819- 1900) كاتب وناقد فني انكليزي
--

الكثير من يسر الحال. عندما تكون القيم قيد الاستخدام هي الغاية من الصناعة فسوف تكون عرضة للكثير من التمحيص والنقد اللذين ليس لهما الآن من أساس سوى إعطائها تفسيراً أخلاقياً خارجياً وغير النصح والتحذير. أما الإنتاج لغاية الربح الخاص فيرمز إلى تحفيز الاستهلاك أياً كان نوعه بحيث يقود إلى الكسب الخاص.

لا يمكن أن يكون ثمة تطور ثابت ومتوازن للعقل والشخصية بمعزل عن تحمل المسؤولية. وهذه المسؤولية في مجتمع صناعي يجب أن تترافق في معظم الأحيان مع الصناعة ذلك أنها سوف تنمو على نحو غير مباشر من تلك الصناعة حتى لدى أولئك غير المنخرطين بها. ومع اتساع وتكامل الإحساس بالنتائج الاجتماعية – أي أثرها على تجربة حياة المستهلك – يزداد عمق وتأكد استقرار ذكاء الذين لهم الموقع الأول والمتقدم في إدارة الصناعة. وقد ينشأ عن مجتمع مشبع بالصناعية طبقة من أشخاص ذوي ثقافة عليا وفق المعنى التقليدي للتهذيب والثقافة. ولكن سيكون هنالك شيء هزيل وضئيل حتى في الأجر المجزي لهذا التثقيف لو نشأ بعيداً عن التيارات الرئيسة للعمل الذي فيه ينخرط الفكر والرغبة. وطالما بقي الخيال مهتماً بصورة رئيسة

أكد على مساوئ المجتمع الصناعي الجديد. (م.)

بالحصول على نجاح مالي والاستمتاع بنتائجه المادية فإن نوع الثقافة سيتماثل مع هذه المعايير.

مما لا شك فيه أن تطور العقل ومنتجاته الثقافية كان في كل مكان وكل زمان متوافقاً في طبيعته ونشأته مع القنوات التي فيها تمارس وتطبق أنشطة العقل. وهذه الحقيقة تشكل تعريفاً لمشكلة خلق ثقافة تكون ثقافتنا نحن بكل خصائصها وصفاتها المميزة. أما الهروب من الصناعية بحجة أنها ليست جمالية ووحشية فلا يعطي إلا نجاحاً سطحياً ومحدوداً للاحترام. ولعله من التصوير السخيف أن نفسر هكذا عبارات بحيث تعني أن العلم يجب أن يكرس نفسه وعلى نحو مباشر لحل المشكلات الصناعية أو أن الشعر والرسم يجب أن يجدا مادتهما في الآلات وعمليات الآلة. فالمسألة ليست مسألة إضفاء المثالية على الظروف الراهنة عند معالجة الجمال، بل هي مسألة اكتشاف ومحاولة تحقيق الظروف التي بها قد يحدث إنتاج للجمال المفعم بالحياة وتقدير الجمال على مقياس اجتماعي سخي.

والقول نفسه ينطبق على العلم، فالمسألة بحدها الأدنى ليست مسألة دراسة هذا التطبيق أو ذاك على وجه الخصوص بما يمكن استخلاصه من العلم، فنحن لدينا هذا النوع من الأشياء وبكم كبير. بل هي مسألة اعتراف من جانب المحققين العلميين بالمسؤولية الفكرية بإدخالهم إلى وعيهم ذلك الإدراك بما فعله

العلم حقيقةً من خلال تقاناته النظيرة وفي جعل العالم والحياة إلى ما صارا إليه. وقد يثمر هذا الإدراك عندما يطرح السؤال حول ما الذي يستطيع العلم أن يفعله في صنع نوع مختلف للعالم والمجتمع. وهكذا علم سيكون على القطب الآخر لعلم كان ينظر إليه على أنه مجرد وسيلة لغايات صناعية خاصة. وسوف يتضمن فعلاً في مجاله جميع المظاهر التكنولوجية للعلم الأخير، ولكنه سوف يهتم أيضاً بالتحكم في آثارها الاجتماعية. إن مجتمعاً إنسانياً قد يستخدم الطريقة العلمية والذكاء وأفضل تجهيزاته لإحداث نتائج إنسانية. وهكذا مجتمع يلبي الطلب على علم يكون إنسانياً، ولا يكون مجرد علم فيزيائي وتقني. إن "حلول" مشكلة العلاقة بين المادي والروحي، والمثالي والواقعي، هي مجرد حلول تصورية وفي أفضل حالاتها هي حلول تنبؤية ما لم تكن الظروف المادية قد صارت مثالية من خلال الإسهام في النتائج الثقافية. والعلم أداة محتملة لهكذا روحانية تحريرية، والفنون، بما في ذلك فن الرقابة الاجتماعية، هي إحدى ثمراته.

أظن أنني لا أحمل رأياً مغالياً حول التأثير الذي يحققه ما يسمون بـ "المفكرين" – وأعني الفلاسفة والمتخصصين وسواهم، والنقاد والأدباء وذوي الاختصاص عموماً ممن لديهم اهتمام يتجاوز حدود مهنهم. بيد أن موقعهم الحالي ليس مقياساً لإمكاناتهم. فهم الآن متفرقون ومنقسمون فكرياً، وهذه الحقيقة أحد مظاهر ما أسميته "الفرد الضائع". وهذا الانحلال

ليس بالضرورة مصحوباً بفعالية اجتماعية ضعيفة. لكن سبب هذه الهيولة يعود دون أي شيء آخر إلى الانسحاب الذهني وإلى التقاعس عن مواجهة واقع المجتمع الصناعي. وسواء كان التأثير الجوهري للإنسان المثقف أو لجماعة فكرية مميزة كبيراً أم صغيراً ، فإن على هؤلاء القيام بالتحرك الأول. وأي دراسة نقدية ذات توجيه من الوعي والشعور لحالة المجتمع الراهن في أسبابها ونتائجها هي شرط مسبق لإبراز الأفكار البناءة. ولكي تكون هذه الحركة فاعلة يجب أن تكون منظمة. لكن هذا المقتضى لا يتطلب إقامة تنظيم رسمي، بل يتطلب إحساساً بأن الحاجة والفرصة يجب أن تمتلكا عدداً كبيراً وكافياً من العقول. وإن حدث هذا حقاً فسوف تتلاقى نتائج الاستقصاءات حول قضية مشتركة.

تتمثل وجهة النظر هذه أحياناً بدعوة افتراضية لأولئك المنخرطين في الاستقصاء والتأمل بأن يهجروا دراساتهم ومخابرهم ومكتباتهم وبأن ينخرطوا بأعمال الإصلاح الاجتماعي. لكن هذا التمثيل ينطوي على شيء من المبالغة. ليس المطلوب ترك التفكير والاستقصاء المطلوبين بل المطلوب مزيد من التفكير ومزيد من الاستقصاء المفيد. وهذا "المزيد" يساوي التوجيه الواعي للفكر والاستقصاء، ولا يمكن الحصول على هذا التوجيه إلا من خلال إدراك المشكلات بحسب إلحاحيتها. منصب "الكاتب" وأمين السر بعد أن يشغلا ، إن وثقنا بالتاريخ، هما مكانان لهما

تأثير كبير، إن لم يكن أثر الشرف. وفي مجتمع لقادة عسكريين وسياسيين أميين يبذل هؤلاء المفكرون الكثير من التفكير والتفاوض اللذين يعود الفضل فيهما إلى أشخاص عظام. ومفكرو العصر الحالي هم أحفادهم. وهم ظاهرياً تحرروا من سلطة آبائهم ولهم الآن موقف مستقل لم يتمتعوا به سابقاً. أما ما إذا كانت فاعليتهم قد ازدادت بما يتناسب مع هذا التحرر فهذا لا يزال موضع شك. هم نالوا إلى حد ما حريتهم طبقاً لنسبة مباشرة مع بعدهم عن مسرح العمل. لكن اتصالاً بهذه المسارح على نحو أكثر التصاقاً لا يدل، وأؤكد على هذه الكلمة، على إخضاع الأعمال للفكر حتى لو كان فكراً تخمينياً لأجل الانشغال والانهماك في مسألة يقال عنها بأنها عملية. بل سوف تدل على تركيز الفكر وتكثيف جودته من خلال وضعه في علاقة مع قضايا ذات معنى مذهل وعجيب.

لدي ارتياب كبير إزاء محاولات إقامة تراتبية هرمية للقيم، فقد ثبت أن نتائجها عموماً مجردة وغير قابلة للتطبيق. ولكن يوجد في كل حين تراتبية هرمية للمشكلات، ذلك أنه توجد بضع قضايا تستتر تحت قضايا أخرى وتكيفها. ولا يوجد شخص واحد يقوم بتطوير حل بناء لمشكلة أنسنة حضارة صناعية أو جعلها هي وتكنولوجيتها خادماً لحياة الإنسان – فهذه مشكلة تعادل عندنا مشكلة خلق ثقافة أصيلة. لكن التوجيه العام لمسعى فكري جاد من خلال الوعي بالمشكلة سوف يمكّن جماعة

واحـدة مـن الأفـراد علـى الأقـل، مـن اسـتعادة وظيفـة اجتماعيـة وبالتـالي يعيـدون اكتـشاف أنفـسهم. أمـا اسـتعادة أولئـك الـذين لـديهم أجهـزة ومواهـب فكريـة خاصـة مـن هـروبهم الاجتمـاعي المفـروض علـيهم فهـذه في الحـد الأدنـى خطـوة أولى في إعـادة بنـاء أكثر عمومية تحقق لنا اندماجاً بديلاً عن الفوضى.

وعليـه، فـإنني لا أرغـب أن تفـسر ملاحظـاتي حـول الهـروب والانسحاب كما لو أنها موجهة إلى أي جماعة خاصة من الأفـراد. إن هـروب أفـراد معينـين عـرض مـن أعـراض عـزل العلـم والـذكاء والفـن القـائمين. والثغـرة الشخـصية، عمومـاً، الـتي تعـزل العامـل بـالفكر عـن العامـل بـالأجر، مـا هـي إلا رمـزاً ونموذجـاً لانقـسام عميق في الوظائف. وهـذا الانقسام هو الفصل بـين النظريـة والعمـل في العمليـات الحقيقـة. وآثـار هـذا الفـصل مميتـة للثقافـة في جانـب مثلمـا هـي مميتـة للجانـب الآخـر. وهـي مؤشـر علـى أن مـا نـدعوه ثقافتنا هو استمرار، وعلى مقياس كبير، وسوف يظـل إرثـاً باقيـاً لدينا لتقاليد أوروبية وأنها لن تكون قط ثقافة أصيلة. وإذا كـان صـحيحاً مـا يدعيـه الـبعض، بأنـه مـع توسـع تكنولوجيـا الآلـة والصناعة فالعالم كله يصبح أمريكيـاً، عندئذ لـن يكـون خلق ثقافـة أصيلة إسـاءة نقـدمها للينـابيع الأوروبيـة التقليديـة لحياتنـا الروحية. ولن ترمز إلى نكران جميل بل ستكون مجهوداً يبذل في سبيل سداد دين قديم.

إن حل أزمة الثقافة شبيه باستعادة فردية خلاقة ومؤثرة ومتكاملة. وانسجام عقل الفرد مع واقع حضارة ذات مظهر شركاتي خارجي من خلال صناعة قائمة على التكنولوجيا لا يؤشر إلى أن عقول الأفراد سوف تصوغها سلباً ظروف اجتماعية قائمة كما لو أن هذه الأخيرة ثابتة وساكنة. عندما تكون الأنماط التي تشكل فردية الفكر والرغبة متوائمة مع القوى الاجتماعية الفاعلة، سوف يعمل هذا المجهود الخلاق على إطلاق هذه الفردية لتعمل بجهد خلاق. فالأصالة والفرادة ليستا مضادين للتغذية الاجتماعية، بل إن هذه التغذية تنقذهما من الشذوذ والهروب. طاقة الأفراد الإيجابية والبناءة المتمثلة بإعادة صنع وتوجيه القوى والظروف الاجتماعية هي بحد ذاتها ضرورة اجتماعية. وثقافة جديدة تعبر عن الإمكانات الكامنة في الآلة وفي الحضارة المادية سوف تطلق كل ما هو خلاق في الأفراد، مميزاً كان أم محتملاً. وأفراد تحرروا بهذه الطريقة سوف يصبحون الصانع الدائم لمجتمع متجدد باستمرار.

ذكرنا في فصل سابق أن "القبول" بالظروف له معنيان مختلفان. ولهذه العبارة أود أن أضيف الاعتبار بأن "الظروف" تتحرك دوماً، فهي في حالة انتقال دائم إلى شيء آخر. لكن السؤال الهام هو ما إذا كان الذكاء، بالملاحظة وبالتأمل، يتدخل في ذلك التحرك ويصبح العامل الموجه في هذا الانتقال. لكن الظروف في لحظة تدخله تصبح ظروف تتبؤ بالنتائج،

وعندما تتجلى هذه الظروف بالفكر والتفضيل والإرادة، يتدخل التخطيط والتقرير. لكن التبؤ بنتائج الظروف القائمة يعني استسلام الحيادية والاندفاع، ما يعني الانحياز لصالح النتائج المفضلة. إن النتائج الثقافية التي ينتجها اليوم نظامنا الصناعي ليس لها نهاية. وعندما تلاحظ ويتم وصلها عشوائياً بأسبابها تصبح ظروفاً للتخطيط والرغبة والاختيار. والاستقصاء التمييزي يكشف عن ذلك الجانب من النتائج التي تكون نتاج عوامل تكنولوجية فاعلة وعن ذاك الجانب العائد لنظام اقتصادي وقضائي يكون في مقدور الإنسان أن يعدله ويغيره. ومن الغباء حقاً أن يفترض المرء بأن حضارة صناعية سوف تنتج آلياً وبدافع داخلي منها ثقافة جديدة. لكن التخلي عن المسؤولية الذي يفترض ثقافة أصيلة لا يمكن تحقيقها إلا من خلال إدراك فكري فاعل ويقظ لوقائع عصر صناعي، ومن ثم من خلال التخطيط لاستخدامها لصالح حياة إنسانية مفيدة. أما الاتهام بأن أولئك الذين يلحون على إقرار فكري أو قبول يكونان خطوة ضرورية أولى فيتوقف عند هذه النقطة، وبالتالي يضع حداً للعقلنة المتفائلة للحاضر كما لو أنه نهائي فما هو إلا اتهاماً يوصف بسوء تأويل يدل على رغبة بالتخلي عن مسؤولية القيام بمهمة إعادة البناء والتوجيه. أو ربما هو انتظار لمعجزة تستولد ثقافة ترغب بها جميع العقول الجادة.

الفصل الثامن

الفردية في عصرنا الحاضر*

حاولت في الفصول السابقة أن أرسم صورة لهذا الانفصام الحاصل بين فكرة الفرد الموروث من الماضي وواقع الحالة الآخذة بالصيرورة إلى شركاتية. وبينت بعض الآثار المترتبة على الفردية التي تعيش على هذا الانقسام. وتحدثت منبهاً بأن الفردية سوف تصبح مجدداً كلاً متكاملاً وسوف تكون حيوية عندما تخلق لنفسها إطاراً من خلال الاهتمام بالمشهد حيث توجد وتتطور بمحض الظروف. قد يرى كثيرون فيما قلته عن المشكلة بأنه ملاحظة عادية قد تكون غير ذات أهمية. وقد يستهجن آخرون تقاعسي عن تقديم حل مكتمل التفاصيل وصورة محددة لما سوف يكون عليه الفرد لو أنه عاش بانسجام وتناغم مع واقع الحضارة

* نشرت أول مرة في مجلة New Republic 62 بتاريخ 1930/4/2م

الأمريكية. وربما تظن جماعة ثالثة بأن الداء قد وصف على أنه علاج، وأن المقالات مديح مختلط للعلوم التكنولوجية ولحضارة صناعية قائمة على الشركات، وبأنها مجهود يعزز ويرفع من شأن عرية الموسيقا التي يأنف أولئك عن الصعود إليها.

لكنني في الواقع حاولت التحليل، ولم أحاول قط أن أدين شرور المجتمع الحالي، ولا تزكية غايات محددة ومثل عليا للشفاء من هذه الشرور. والسبب في ذلك أنني أعتقد أن العقول الجادة متفقة إلى حد ما حول الشرور والمثل العليا – طالما أنها جميعاً تؤخذ بمصطلحات عامة. فالإدانة في كثير من الأحيان ما هي إلا طريقة لإظهار التفوق، فهي تتحدث من خارج المشهد، وتكشف عن أعراض المرض، وليس أسبابه. وهي عقيم، لا تنتج، هي لا تنتج إلا ذاتها. أما المثل العليا، فنحن جميعاً متفقون بأننا نريد حياة جيدة، وأن الحياة الجيدة تشتمل على الحرية وعلى الذائقة التي تتعلم كيف تقدر الجميل والشريف والصادق الوعد. ولكن طالما بقينا نقتصر في حديثنا على العموميات فإن العبارات التي تتحدث عن المثل العليا قد تنتقل من المحافظ إلى الراديكالي أو بالعكس، ولن يكون أي منهما أكثر حكمة من الآخر. والسبب في ذلك أنهما، بدون التحليل، لا ينزلان إلى المشهد الحقيقي، ولا يهتمان بالظروف التي تستولد تحقيقاً للمثل العليا.

هنالك خطر كامن في التأكيد على حقائق خالدة وروحانيات مطلقة. تبلّد إحساسنا بالحقيقي، ونحن منقادون للتفكير بأننا إن أمعنا التفكير بالأهداف المثالية فإننا بطريقة ما نتعالى فوق الشرور الموجودة. لكن المثل العليا تعبر عن الإمكانات، وهي لا تكون مُثُلاً أصيلة إلا بحدود كونها إمكانات لما يتحرك الآن. يستطيع الخيال أن يحررها من معوقاتها وأن يبرزها دليلاً مرشداً للاهتمام بما هو كائن الآن. إنما فيما عدا أنها متصلة بالوقائع فهي صور في حلم يراه النائم.

ثم جازفت فافترضت أن تحليل الظروف الراهنة يحظى بأهمية بالغة. فالتحليل حتى لو كان من النوع غير النظامي يكشف بأن هذه الظروف ليست ثابتة. والقبول بها فكرياً يعني أن نراها في حالة تغيّر متواصل. وحركتها ليست محتومة بنهاية واحدة. قد يمكن إبراز نتائج عدة وقد يمكن توجيه الحركة عبر قنوات عدة ونحو أهداف مختارة وذلك حالما نفهم الظروف وندركها كما هي. ونحن من خلال شعورنا بتحركاتها ومن خلال مشاركتنا الفاعلة في تياراتها نستطيع أن نوجهها نحو الإمكانية المفضلة لدينا. وعبر هذا التفاعل يتوصل الأفراد إلى كينونة موحدة ومتكاملة. والفرد الذي يشارك بذكاء ونشاط في إدراك أن ذلك ما هو إلا خطوة أولى في الاختيار الواعي لن يكون معزولاً بالمطلق فيضيع ولن يكون ساكناً هامدا فيُكبت.

إن واحدة من الصعوبات الرئيسة في فهم الحاضر واستيعاب الإمكانيات البشرية فيه هي الإصرار وبالتالي استمرار تلك الصور النمطية المشوهة للحياة الروحية التي تكونت داخل ثقافات قديمة وغريبة. ففي المجتمعات الساكنة – أي تلك التي حكمت عليها الثورة الصناعية بالإخفاق – كان للإذعان معنى، وبالمثل كان ثمة معنى لإبراز المثل العليا الثابتة. كانت الأشياء مستقرة نسبياً بمعنى أنه كان ثمة شيء يقبله المرء ويذعن له، وكان ممكناً تخيّل أهداف ومثل عليا تكون ثابتة بطريقتها كما الأشياء الموجودة فيها. وكان باستطاعة النظام القضائي في العصور الوسطى أن يعرّف الأسعار والأجور "العادلة" ذلك أن التعريف كان صياغة لما هو عرف وعادة في المجتمع المحلي، وانحصر عمله في مجرد منع الانحرافات الفادحة. وكان باستطاعته أيضاً أن يفرض نظاماً لواجبات محددة في جميع العلاقات وذلك بسبب وجود نظام التراتبية الهرمية، وكان ثمة مناسبات حيث يقع الوفاء بالواجب ضمن نظام قائم ومعروف. كانت المجتمعات محلية، ولم تندمج أو تتداخل أو تتفاعل فيما بينها بكل أنواع السبل الخفية والماكرة. كانت الكنيسة الحارس والناظم للحقيقة الروحية والمثالية، وكانت لسلطتها النظرية قنوات مباشرة تجعلها حاضرة في كل التفاصيل العملية للحياة. قد يكون لذلك الواقع الروحي محله في العالم الآخر،

لكن هذا العالم الآخر مرتبط ارتباطاً وثيقاً في جميع شؤون هذا العالم عبر مؤسسة موجودة هنا والآن.

أما اليوم فلا توجد أنماط تدوم بما يكفي لتقديم شيء ثابت ومستقر نذعن له ونقبل به، ولا توجد مادة يمكن أن نؤطر بها الغايات النهائية الشاملة للكل. ولكن يوجد من ناحية أخرى ذلك التغير المستمر الذي لا يكون الإذعان له إلا سلسلة من نوبات وفورات متقطعة، والنتيجة مجرد اندفاع وانجراف. وفي حالة كهذه لا تكون الغايات الثابتة والشاملة إلا أحلاماً لا أهمية لها بينما لا يكون الإذعان سياسة بل تخلياً ونكراناً لهذه السياسة.

وأكرر القول، الآلة مدانة جملة وتفصيلاً ذلك أنها تُرى بعيون الروحانية التي كانت تنتمي لحالة أخرى للثقافة. ويجري التعامل مع التبعات الشريرة الحالية كما لو أنها ذات ضرورة خالدة لأن هذه الآلة لا يمكن أن تنسجم مع المثل العليا لعصر آخر. وعصر الآلة، في الواقع، هو تحد يستولد مفاهيم جديدة لما هو مثالي وروحاني. وقد وصف فيريرو* Ferrero الآلات بقوله "إنها برابرة العصور الحديثة الذين دمروا أجمل أعمال الحضارات القديمة." ولكن حتى البرابرة أنفسهم لم يكونوا برابرة لا يتغيرون، هم أيضاً كانوا حملة حركة توجيهية، ومع الزمن صنعوا حضارة كان لها مقاييسها الخاصة للعدل والجمال.

* غوليلمو فيريرو Guglielmo Ferrero (1871- 1942) مؤرخ وكاتب إيطالي. (م.)

غير أن معظم الهجمات على طبيعة العلم هذه ذات الصلة بالآلة سببها بقاء فلسفات وديانات تشكلت عندما كانت الطبيعة العدو الشرس للإنسان. لكن إمكانية الحاضر، وبالتالي مشكلته، تكمن في أن الطبيعة قد تصبح من خلال العلم وبسببه صديق الإنسان وحليفه. وأنا شخصياً قلما رأيت هجوماً على العلم من حيث كونه معادياً للإنسانية لم يتكئ على تصور للطبيعة تشكل قبل وجود العلم بزمن طويل. إضافة لذلك يمكن لأي عقل جاد أن يرى بوضوح وجود الكثير مما يطوق الطبيعة ويكون معادياً وعديم الاكتراث بالقيم الإنسانية في كل وقت. عندما كان ثمة جهل بالطبيعة كان التحكم بها ضرباً من المحال. ودون قوة للتحكم والسيطرة لا يوجد ملاذ إلا في بناء أماكن يلجأ إليها الإنسان ليعيش في الخيال، وليس في الحقيقة. لا ضرورة لإنكار نعمة وجمال بعض هذه الأبنية. ولكن عندما تظهر للعلن طبيعتها التصورية تلك يصبح من غير المفيد الافتراض بأن الناس يستطيعون الاستمرار في العيش وفي استدامة الحياة بها. وعندما يتم اللجوء إليها للدعم، تختفي الإمكانيات عن النظر وتبقى الإمكانيات البناءة دون أن تستخدم.

قد يستنتج المرء من خلال قراءاته للكثير من الأدبيات التي كتبت في تقدير العلم أن الناس لم يدركوا بأن العيش في الطبيعة يستتبع الموت ويجعل الثروة أمراً غير مستقر وغير أكيد، حتى أن "العلم" يعامل كما لو أنه هو المسؤول عن كشف حقيقة

أن الطبيعة كانت في معظم الأوقات عدواً للمصالح والسلع البشرية. لكن طبيعة العقائد ذاتها التي آمن الناس بها قديماً والطقوس التي مارسوها هي البرهان الأكيد بأن الناس يشعرون بهذه الحقيقة عموماً. ولو لم يكونوا كذلك لما لجأوا للسحر والمعجزات والخرافات والعزاء بتعويض ذلك كله في عالم آخر وحياة أخرى. وطالما أنهم يؤمنون بهذه الأشياء كلها بكل إخلاص، يصبح للثنائية ولما هو ضد الطبيعة معنى ذلك أن هذا "العالم الآخر" واقع وليس خيالاً. والتنازل عن هذا الاعتقاد والاحتفاظ بالاعتقاد بالثنائية أمر ممكن مؤقتاً للعقل المذهول. وهذا ظرف يستحيل الاحتفاظ به على الدوام. والبديل هو القبول بما يقوله العلم عن العالم الذي فيه نعيش وأن نحسم أمرنا ونستعمل القوى التي يضعها في طاقتنا لنجعل الطبيعة أكثر طواعية لرغبة الإنسان وأكثر إسهاماً لخير الإنسان. فـ "المذهب الطبيعي" كلمة لها دلالات كثيرة. لكن نزوعاً نحو الطبيعة يرى أن الإنسان، بما لديه من عادات ومؤسسات ورغبات وأفكار وتطلعات ومثل عليا، ونضالات، هو داخل الطبيعة وجزء لا يتجزأ منها وله أسس فلسفية وإلهام عملي لذلك الجهد الهادف لتوظيف الطبيعة في كونها حليفاً للمثل الإنسانية العليا وخيرها وهذا نزوع لا يمكن للثنائية أن تقدمه.

هنالك من يرحبون بالعلم شريطة أن يبقى "نقياً" صافياً، وهم يرون في ذلك سعياً وهدفاً للمتابعة وهو شرط يضاف لمعنى

الاستمتاع بالحياة. لكنهم يشعرون بأن تطبيقاته في الاختراعات المتعلقة بالآلة هي سبب الكثير من مشكلات ومتاعب المجتمع المعاصر. طبعاً، لقد جلبت هذه التطبيقات أشكالاً جديدة للمعاناة والقبح. ولن أحاول القيام بمهمة مستحيلة تتمثل في محاولة إحداث توازن صاف للمساوئ والمتع بين أيام سبقت أو أعقبت الاستخدام العملي للعلم. لكن النقطة الأهم هي أن التطبيقات لاتزال مقيدة. فهي تتعلق بتعاملنا مع الأشياء وليس مع بعضنا بعضاً. نحن نستخدم النهج العلمي في توجيه الطاقات الفيزيائية المادية وليس الطاقات البشرية. وعليه فإن دراسة التطبيق الكامل للعلم يجب أن يكون تنبؤياً وليس سجلاً لما قد حدث فعلاً. لكن هكذا نبوءة ليست بلا أساس. حتى، وكما الأشياء هي حقيقة، هنالك حركة في العلم تنطوي على تنبؤ لعصر أكثر إنسانية، إذا تم تنفيذ الوعد الكامن، ألا وهو عصر يكون أكثر إنسانية. فهو يصبو لعصر يكون فيه جميع الأفراد مشاركين في اكتشافات الآخرين وأفكارهم، كما يصبو أيضاً لتحرير وإغناء تجارب الآخرين.

لا يستطيع باحث علمي أن يحتفظ لنفسه بما يتوصل إليه أو أن يحوله إلى مجرد حساب شخصي دون أن يفقد سمعته العلمية. وكل شيء يتم اكتشافه ملك لجماعة العاملين فيه. وكل فكرة أو نظرية جديدة يجب أن تقدم لهذه الجماعة لتأكيدها وتثبيتها بعد اختبارها. هنالك مجتمع آخذ بالتوسع والامتداد لأجل المجهود

التعاوني وللحقيقة. صحيح أن هذه السمات تقتصر حالياً على جماعات صغيرة من الأفراد لديهم نشاط تقني معين. لكن وجود هكذا جماعات يميط اللثام عن إمكانية في الحاضر – هي واحدة من إمكانيات كثيرة تشكل تحدياً للتوسع، وليست سبباً للتراجع والانكماش.

لنفترض أن ما يحدث اليوم داخل دوائر محدودة قد توسع وتعمم. فهل تكون النتيجة قمعاً أم انعتاقاً؟ الاستقصاء تحد وليس خضوعاً سلبياً، والتطبيق وسيلة للنمو وليس وسيلة للكبت. والتبني العام للحالة العلمية في الشؤون البشرية لا يعني شيئاً أقل من تغير ثوري في الأخلاق والدين والسياسة والصناعة. وأما حقيقة أننا قيدنا استعماله كثيراً على الأمور التقنية فهي ليست لوماً للعلم بل لبني البشر الذين يستخدمونه لغايات خاصة شخصية والذين يسعون جاهدين لإحباط تطبيقه الاجتماعي خوفاً من آثاره الهدامة على سلطتهم وأرباحهم. لهذا فإن رؤية يوم تستخدم فيه العلوم الطبيعية والتكنولوجيا النابعة منها في خدمة حياة أكثر إنسانية تشكل الخيال الذي له صلة بعصرنا. أما وجود إنسانية هاربة من العلم وتحسبه عدواً فما ذلك إلا رفضاً للوسيلة التي بها قد تصبح الإنسانية المتحررة واقعاً ملموساً.

الحالة العلمية تجريبية مثلما هي تواصلية في جوهرها. ولو طبقت عموماً لحررتنا من هذا العبء الثقيل الذي فرضته علينا

العقائد والمعايير الخارجية. والطريقة التجريبية شيء مختلف عن استخدام أنابيب النفخ وأنابيب الاختبار والكواشف الكيميائية. هي عدو لكل معتقد يبيح للعادة والتعود أن يهيمنا على الاختراع والاكتشاف، ويسمح لمنظومة جاهزة أن تطغى على حقيقة مؤكدة. المراجعة المستمرة والدائمة هي عمل الاستقصاء التجريبي. ومن خلال مراجعة المعرفة والأفكار تتولد لدينا القدرة على إحداث التغيير. وهذه الحالة، حالما تتجسد في عقل الفرد، تجد لها منفذاً تشغيلياً. وإن اهتزت العقائد والمؤسسات عند ظهور فكرة جديدة فهذه الرجفة ليست شيئاً أمام ما قد يحدث لو كانت الفكرة تملك وسيلة الاكتشاف المستمر لحقيقة جديدة ونقد معتقد قديم. وحالة "القبول والإذعان" في العلم لا تشكل خطراً إلا على الذين يرغبون بالحفاظ على الحال الموجودة في نظام اجتماعي قائم لا يتغير بسبب عادة الخمول أو المصلحة الذاتية. والسبب في ذلك أن الحالة العلمية تقتضي الإخلاص لكل ما يتم اكتشافه وثباتاً في التمسك بالحقيقة الجديدة.

لكن هذا الشيء "المقدم" والذي يدعونا العلم للقبول به ليس شيئاً ثابتاً، بل هو شيء جار العمل فيه ولم يكتمل. الكيميائي، على سبيل المثال، لا يدرس العناصر لينحني إجلالاً لها، بل يدرس القدرة على إحداث التحولات التي تشكل النتيجة التي ينبغي التوصل إليها. يقال، والقول صحيح، إننا الآن ننوء تحت ثقل العلم. ولكن لماذا؟ هنا ينبغي التسامح بعض الشيء وذلك بخصوص

الــزمن الــذي يــستغرقه تعلــم اســتخدامات الوســائل الجديــدة وتخـصيص الإمكانيـات المحتملـة. عنـدما تكـون هـذه الوسـائل جديدة جذرياً كمـا هـو العلم التجـريبي يصبح الـزمن الـلازم لهـا طـويلاً بمـا يتناسـب معهـا. ولكـن بمعـزل عـن هـذه الحقيقـة، فـإن تـضاعف وكثـرة الوسـائل والمـواد هـو بذاتـه زيـادة في الفـرص والغايـات. بـل ويـشكل انطلاقـاً للفرديـة نحـو أعمـال وعواطـف تكـون أكثـر تجانسـاً وملاءمـة لطبيعتهـا الخاصـة. حتـى حـوض الاستحمام الذي تعرض للسخرية له استعمالاته الفردية، فالفرد لا ينحط قدره إذا جاءته فرصة ليستحم ويبقـى نظيفـاً. والمذياع يعمل على تعزيز توحيد المواصفات والمقاييس إنمـا إذا تخلـى الأفـراد عـن ممارسة رد الفعل الانتقائي الذي هو من حقهم. والعدو ليس سلعاً ماديـة، بـل هـو فقـدان الإرادة لاسـتعمالها بمثابـة وسـائل وأدوات لتحقيق الإمكانات المفضلة. لنتخيل مجتمعاً خالياً من هيمنة المال فيتـضح لنـا ذاتيـاً أن الـسلع الماديـة بحـد ذاتهـا تعـد دعـوة للذائقـة الفردية والاختيار الفردي، وتـشكل مناسـبات لنمـو الفـرد. وإن لم يكـن بنو البشر أقويـاء وصـامدين ليقبلـوا هـذه الـدعوة ويـستفيدوا من الفرص المتاحة فلنضع اللوم حيث يجب أن يكـون.

والحق يقال يوجد قدر كبير من الحقيقة في الحتمية* الاقتصادية. الصناعة ليست خارج حياة الإنسان، بل هي في داخلها. لكن تقاليد التكلف وتقليد الأثرياء تغلق عينيها عن هذه الحقيقة، فهي تدفع عاطفياً وفكرياً بالصناعة ومرحلتها المادية نحو منطقة بعيدة نائية عن القيم الإنسانية. أما التوقف عند مجرد رفض عاطفي وشجب أخلاقي للصناعة والتجارة لكونها مادية فهذا يعني تركها في هذه المنطقة اللاإنسانية حيث تعمل كأنها أداة بيد أولئك الذين يستخدمونها لمكاسب شخصية. والإقصاء على هذه الشاكلة شريك لهذه القوى التي تبقي الأشياء مهيمنة. توجد شراكة تحت أرضية بين أولئك الذين يوظفون النظام الاقتصادي القائم لأجل كسب مالي أناني وأولئك الذين يديرون ظهورهم ولا يكترثون لذلك خدمة لرضاهم الشخصي ومنزلتهم الخاصة واللامسؤولية.

مما لا شك فيه أن كل مهنة أو عمل تترك بصماتها على طبيعة الفرد وتكيّف وجهة نظر أولئك الذين يقومون بها نحو الحياة. ولا أحد يعترض على هذه الحقيقة وبخاصة فيما يتعلق بارتباط العمال بالآلة أو ارتباط رجال الأعمال الذين يكرسون أنفسهم للتعاملات المالية. قد يكون للمهن جذور تمتد إلى تلك

* الحتمية determinism مذهب يقول بأن أفعال المرء والتغيرات الاجتماعية الخ ... هي ثمرات عوامل لا سلطة للمرء عليها. (م.)

الدوافع الفطرية الكامنة في الطبيعة البشرية، لكن متابعة هذه المهن ليس مجرد "تعبير" عن هذه الدوافع، فيتركها على حالها دون تغيير، بل إن هذه المتابعة تقرر الآفاق الفكرية وتعجل حصول المعرفة والأفكار، وتشكّل الرغبات والمصالح. ويعمل هذا التأثير في حالة أولئك الذين يشتغلون بالفنون الجميلة أو في العلم أو الدين في كونها غايات بذاتها، منعزلة عن إشعاعات وتمددات اهتمامات أخرى (حيث الإشعاع يكون ما يرمز إليه "التطبيق") مثلما يعمل في حالة أولئك الذين ينخرطون في الصناعة. أما البدائل فتتمثل في فقدان التطبيق وما يستتبعه من تضييق وتخصص مفرط، وتطبيق يترافق مع تضخم وزيادة في الليبرالية التحررية. وهذا التضييق في حالة الصناعة والجاري بمعزل عن غايات اجتماعية واضح جلي لكل شخص متأمل. ومن جانب آخر، سرعان ما يعمل المفكرون والأدباء الذين يرون أنفسهم مخلصين للسعي وراء الحقيقة الصافية والجمال البعيد عن التلوث على غض الطرف عن حقيقة مفادها أن تضييقاً وتشدداً مشابهين يحدثان في داخلهم. صحيح أن إنتاجهم أكثر تهذيباً وصقلاً إلا أنهم هم أيضاً منشغلون في الاستحواذ، وإن لم يهتموا بالفائدة والتفاعلات البينية المتسعة فسوف يصبحون أيضاً احتكاريين لرأس المال. واحتكار رأس المال الروحي قد يكون في نهاية المطاف أكثر ضرراً من رأس المال المادي.

إن التأثير الهدام للعلم الواقع على معتقدات باقية في الأذهان على مر العصور وقيم كانت موضع فخار هو سبب كبير للخوف من العلم وتطبيقاته في الحياة وطبيعي أن يكون كذلك. وقانون العطالة ينطبق على الخيال وعلى ولاءات الناس كما ينطبق على الأشياء المادية. لكنني في الوقت نفسه لا أفترض أن من الممكن الانتقال فجأة من هذه التأثيرات السلبية إلى تأثيرات إيجابية وبناءة ممكنة. ولكن طالما بقينا نرفض القيام بأي جهد لتغيير الوجهة التي بها ينظر الخيال إلى عالمنا هذا، وطالما بقينا غير راغبين بإعادة دراسة واختبار المعايير والقيم القديمة فسوف يظل العلم متشحاً بمظهره السالب. فلنأخذ العلم (بما في ذلك تطبيقه في الآلة) كما هو، وعندئذ نبدأ برؤيته مبدعاً محتملاً لقيم وغايات جديدة. وسيكون لدينا محبة وألفة على نطاق واسع وسخي مع التحرر ومع المزيد من المبادرة والاستقلالية والابتكارية، كهذه التي يحققها العلم حالياً في الميادين العلمية المتخصصة. سوف ينظر إلى العلم على أنه واسطة نحو الأصالة والتنوع الفردي. حتى في تلك العلوم التي تفخر بأن تسمي نفسها "علوماً بحتة" يوجد مغزى مفيد وعام للغريزة التي تدفعنا لنتحدث عن قانون نيوتن وقانون أينشتاين.

ولأن عمل العقل الحر واحد من أعظم المتع المتاحة للإنسان فإن الحالة العلمية المتجسدة في عقل الفرد شيء يضيف الكثير الكثير إلى متعة المرء في الوجود. وفي الوقت الراهن لا يستمتع

الكـثيرون بمبـاهـج الـتفكير والاستفسار. أمـا أولئـك القلـة مـن الناس الذين يبتهجون بهذه المتع فقلما يستبدلونها بمسرات أخـرى. لكـنهم اليـوم مقيـدون بنوعيـة وعـدد مـن يشاركونهم بهـا. وهـذا يعني بعبارة أخـرى، طالما أن التفكير "العلمـي" محصور بميـادين تقنية، فسوف يظل فاقداً للمدى وللمـادة المتوعة. موضوعه تقني إلى درجة يكون فيها التطبيق في حيـاة الإنسان مستبعداً. والعقل الذي يعوقه خوف بأن شيئاً ما ثمينـاً وقـديماً سوف يـدمر هـو عقل لديـه خـوف مـن العلـم. ومـن يملـك هـذا الخـوف لـن يجـد الثـواب والسلام في اكتشاف حقائق جديدة وعند ظهور مثل عليا جديـدة. وهـو لا يمـشي علـى الأرض مرحـاً لأن لديـه هـاجس الحاجـة إلى حمايـة حيـازة خاصـة لمعتقـد وذائقـة. وحـب الحيـازات الخاصـة لا يقتصر على الماديات.

من خواص العلم أنـه يسعى لإيجـاد فـرص في المشكلات وفي المسائل. وبمـا أن المعرفـة تـأتي عـن طريـق الـسؤال، فالـصعوبات والتعقيدات هي الغذاء الذي تعيش عليه. وأما التباينـات والنزاعـات التي فيها تنشأ المشكلات فهي ليست شيئاً يدعو للخوف، بل هـي شيء يجب تحمله بكل قوة وعزيمة، وهـي شيء ينبغي التصدي له ومعالجته. كل واحد فينا يصادف هذه المصاعب في نطاق علاقاته الشخصية سواء كان ذلك في دائرة علاقاته الضيقة أم أوسـع مـن ذلك في ارتباطـات تسمى عرفـاً وتقليـداً "المجتمـع". وفي أيامنـا هـذه تعتـبر الاحتكاكـات الشخـصية واحـدة مـن الأسـباب الرئيـسة

للمعاناة. لكنني لا أقصد بقولي هذا أن المعاناة سوف تختفي عندما يتدخل المنهج العلمي في تصرفات الأفراد، بل أقول إنها تتزايد كثيراً جداً هذه الأيام بسبب ابتعادنا عن معالجة هذه الاحتكاكات على أنها مشكلات يجب التعاطي معها فكرياً. وأما ما ينتابنا من ألم ومعاناة فرضا علينا فسوف يتضاءلان كثيراً، بل سوف يتحولان إلى متعة تترافق مع عمل العقل الحر إذا اعتبرنا هذه الآلام مناسبات للتفكير، حيث يكون للمشكلات توجه موضوعي ومَنْفَذ.

نحن جميعاً، كما سبق وذكرت، نعاني من تعقيدات ناشئة عن حميمية العلاقات الشخصية. إضافة لذلك، قد تكون العلاقات الأكثر بعداً داخل المجتمع سبباً إضافياً للمتاعب. هنالك أحاديث كثيرة عن "مشكلات اجتماعية". لكننا قلما نتعامل معها على أنها مشكلات بالمعنى الفكري للكلمة. بل نفكر بها على أنها "شرور" بحاجة للتصحيح، مثلما تحتاج الأشياء الشيطانية أو المشاكسة إلى "إصلاح". وانشغالنا بهذه الأفكار برهان أكيد على مدى بعدنا عن اتخاذ الموقف العلمي. وهنا لا أقصد بقولي هذا أن موقف الطبيب الذي يعتبر مريضه على أنه "حالة جميلة" أمر مثالي بكليته. إنما هو أكثر فائدة وأكثر أملاً من استمرار تلك العادة ما قبل العلمية لاهتمامات قلقة بالشرور وإصلاحها. الطريقة الحالية في معاملة الجريمة والمجرم، على سبيل المثال، تذكرنا بالطريقة التي بها كان

النـاس سـابقاً يفكـرون ويتعـاملون مـع الأمـراض. كـانوا سـابقاً يعتقـدون أن أصـل هـذه الأمـراض أخلاقـي وشخـصي، وكـانوا يظنون أن عدواً ما، هو شيطان أو إنسان، قد حقن أو أدخل عنوة مادة غريبة بالشخص المريض. أما إمكانية المعالجة الفعالة فقد بدأت عندما صاروا يعتبرون أن للأمراض أصلاً جوهرياً كامناً في تفـاعلات العـضويات وبيئتهـا الطبيعيـة. ونحـن الآن بـدأنا نفكـر بالجريمـة علـى أنهـا أيـضاً ظهـور لتفـاعلات بـين الفـرد والبيئـة الاجتماعيـة. وفي هـذا الخـصوص وأيـضاً فيمـا يخـص كـثيراً مـن الشرور الأخرى، ما زلنا مصرين على التفكير والتصرف بعبـارات "أخلاقية" لما قبل العلمية. ولعل هذا التصور مـا قبـل العلمـي "للشر" هو أكبر حاجز يقف حائلاً أمام الإصلاح الحقيقي المماثل لإعـادة الصنع البنّاء.

ولأن العلـم يبـدأ بالأسـئلة والاستفـسارات فهـو مهلـك ومميـت لكـل بـرامج وضـع نظـام اجتمـاعي لـه غـايـات ثابتـة محـددة. وعلـى الـرغم مـن إفـلاس الأنظمـة القديمـة للاعتقـاد، فإنـه مـن الـصعوبة بمكـان التخلي عن إيماننا بنظام وبمعتقد مفيد ونافع. ونحن دومـاً وباستمرار نجادل كما لـو أن الـصعوبة كامنـة في نظـام معـين قـد فشل وكما لو أننا على وشـك التوصـل إلى نظـام صـحيح وحقيقـي بينمـا كانـت الأنظمـة الأخـرى كلـها زائفـة. فالمشكلة الحقيقيـة تكمن في حالة الاعتماد على أي واحـد منهـا. لكـن المنهج العلمـي يعلمنـا أن نـضع حـداً لهـذا، وأن نستفـسر علـى نحـو محـدد وواضـح

وبتدقيق في التفاصيل وأن نبحث عن حلول حسب المشكلات الملموسة عند نشوئها. ليس سهلاً أن نتصور الفرق الذي ينتج جراء تغير الفكر نحو التمييز والتحليل. فالمعتقدات بمجملها والمثل العليا المتضمنة كل شيء تبقى عقيمة بمواجهة الحالات والمواقف الحقيقية لأن الفعل يعني دوماً فعل شيء ما على وجه التحديد. وهذه أكثر سوءاً من العقم. وتؤدي إلى حالات عاطفية عمياء ومبهمة تكون السذاجة فيها هي المسيطرة، وحيث يسهل استغلال العمل النابع من عاطفة مسيطرة من قبل محبي الذات الذين احتفظوا بهدوئهم وذكائهم. لا شيء قد يقود إلى إلغاء الحرب، على سبيل المثال، أكثر من استبدال تحليل محدد لأسبابها بمحبة شاملة لـ "الحرية والإنسانية والعدالة والحضارة."

قد تقود هذه الاعتبارات كلها إلى الاستنتاج بأن اكتئاب الفرد مسؤوليته الشخصية، لولا ذلك الزمن الذي يستغرقه مبدأ جديد في مساره ليصل إلى عمق عقل الفرد وعلى نطاق واسع. ولكن مع مرور الوقت تصبح المسؤولية مسؤولية الفرد. لا يمكن القضاء على الفردية ومن طبيعتها أن تؤكد ذاتها. والتحرك الأول في سبيل استعادة فردية متكاملة هي أيضاً كامنة لدى الفرد نفسه. فهو هو ذاته في كل مهنة يجد نفسه فيها وفي أي اهتمام قد ينشغل به، وهو نفسه يعيش في مواقف قد تكون في حالات معينة مرنة ولينة.

لقد اعتدنا أن نفكر بالمجتمع بطرائق واسعة ومبهمة. وعلينا الآن أن ننسى "المجتمع" ونفكر بالقانون، والصناعة والدين والطب والسياسة والفن والتعليم والفلسفة – وأن نفكر بها بصيغة الجمع. ولأن نقاط الاتصال ليست هي عينها عند أي شخصين، فالمسائل التي تفرضها الاهتمامات والمهن ليست نفسها مرتين. لا يوجد اتصال لا يقبل التغيير ولا يعطي فكرة ما. وكل هذه المهن والاهتمامات قنوات يكون عبرها فعل العالم مؤثراً فينا وفي العالم أجمع. لا يوجد مجتمع حر طليق ولا أعمال بالعموم. الانسجام والتناغم مع الظروف ليس تماثلاً واحداً رتيباً، بل هو شأن متنوع يقتضي هجوماً فردياً.

الفردية حالة لا يمكن القضاء عليها فهي سلوك ونمط لحساسية متميزة، ونمط للانتقاء والخيار، وهي استجابة للظروف والاستفادة منها. ولهذا السبب، وليس لغيره، يستحيل تطوير فردية متكاملة من خلال نظام أو برنامج يحتضن الجميع. لا يستطيع فرد واحد أن يقرر شيئاً عن شخص آخر، مثلما لا يستطيع الفرد الواحد أن يقرر شيئاً لنفسه مرة واحدة وعلى الدوام. السلوك الفطري للانتقاء هو الذي يوجه ويؤمّن الاستمرارية، إنما التعبير المحدد لهذا السلوك موجود في مناسبات متغيرة وأشكال مختلفة. لذلك ينبغي القيام بالخيار الانتقائي واستخدام الظروف مرات عدة وباستمرار. وبما أننا نعيش في عالم دائم الحركة والتغيير ولدينا تفاعلاتنا فيه فإن كل تصرف ينتج

منظوراً جديداً يقتضي عملاً جديداً في التفضيل. وإذا بقي الفرد على المدى الطويل ضائعاً فذلك لأنه اختار اللامسؤولية، وإذا بقي ضعيفاً كئيباً على نحو كلي فذلك لأنه اختار مسار الطفيلية السهلة.

أما الإذعان والقبول بمعنى الانجراف مع التيار، فهو ليس شيئاً يمكن تحقيقه، بل هو شيء ينبغي التغلب عليه، هو شيء "طبيعي" بمعنى أنه سهل. لكنه يتخذ أشكالاً كثيرة ومتنوعة، وأحد هذه الأشكال هو ذلك الثناء والاستحسان للظروف الراهنة الذي أبداه الروتريون (Rotary). لكن الشكل الآخر لهذا الإذعان يتمثل بالتخلي عن قيم حضارة جديدة والإبقاء على القيم التي عرفوها في الماضي. أما ارتداء الزي الموحد لثقافة معينة ميتة فما هو إلا وسيلة أخرى للانتظام في جماعات. أما التكامل والاندماج الحقيقي فهو كائن في العلاقة والصلة بالحاضر وفي الاستجابة الفاعلة للظروف حين تظهر وفي الجهد المبذول لتجديدها أو تعديلها طبقاً لإمكانية جرى اختيارها بوعي كامل.

لكن الفردية أولاً وقبل أي شيء آخر عفوية ولا شكل لها، هي إمكانية كامنة، وقدرة على التطور. وبرغم كونها كذلك فهي أسلوب فريد في التصرف داخل ومع عالم من الأشخاص والأشياء. هي ليست كاملة بذاتها، مثل خزانة داخل المنزل أو مثل سر يودع في درج مكتب، مليئة بكنوز تنتظر أن توهب للعالم.

وحيـث أن الفرديـة طريقـة مميـزة في الـشعور بمـؤثرات العـالم ولإظهـار انحيـازات تفـضيلية اسـتجابة لتلـك المـؤثرات، فهـي تتطـور لتتخذ شكلها وذلك من خلال التفاعل مع الظروف الفعلية فقط، وهي ليست أكثر اكتمالاً بذاتها من أنبوب اللون بيد الفنان ودون أي صلة باللوحة. العمل الفني هو الشيء الفردي الوحيد حقاً، وهـو نتيجـة تفاعـل اللـون مـع اللوحـة مـن خـلال رؤيـة الفنـان وقدرتـه المتميزتين. والفردية الكامنة عند الفنان، عندما تتخذ قرارهـا، تأخذ شكلاً دائماً يراه الجميع. أما فرض الفردية على أنها شـيء مسبق الصنع فهذا دليل أكيد على سلوك متكلّف معين ولـيس سلوكاً أصيلاً. ذلك أن الأخير هو شـيء أصيل وفطري وخلاق، شيء جرى تشكله أثناء عملية إبداع أشياء أخرى.

مـن المعـروف أن المـستقبل لا يمكـن التنبـؤ بـه. لكـن المثـل العليـا، بمـا فيهـا الفرديـة الجديـدة الفاعلـة والمـؤثرة، فيجـب أن تتـشكل اعتمـاداً علـى إمكانيـات الظـروف القائمـة، حتـى لـو كانت هي نفسها الظروف التي تشكل عصراً صناعياً تسود فيه الشركات. فالمثل العليا تتخذ شكلها وتكتسب محتواها حين تعمل على إعادة صنع الظروف. وأما نحن وبغية أن يكون لدينا استمرارية التوجه، فقد نخطط لبرنامج عمل انتظاراً للمناسبات حين تظهر. لكن برنامجاً يتضمن غايات ومثلاً عليا إن بقي منعزلاً عن النهج الحساس والمرن يصبح عبئاً وعائقاً. والسبب في ذلك أن الطبيعة القاسية والصارمة لهكذا برنامج تفترض عالماً

ثابتاً وفرداً ساكناً، وكلا هذين غير موجود. بل يعني ضمناً أننا نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل – وهذه محاولة تضع نهاية، كما قال أحدهم، للتنبؤ بالماضي أو في تكراره.

وفي هذا السياق نذكر إيمرسون* الذي سبق وقال: "المجتمع في كل مكان يتآمر على أفراده،" يقول الآن وفي مقالته عينها "إقبل المكان الذي أوجدته لك العناية الإلهية، ومجتمع أناس يعاصرونك والاتصال بالأحداث." والآن، وحيث تؤخذ الأحداث منفصلة ودون ترابط وتعتبر منعزلة عن التفاعلات بسبب فرد يقوم بالانتقاء، فهي تتآمر على الفردية. وهكذا يفعل المجتمع عندما يتم قبوله على أنه شيء ثابت في المؤسسات. لكن "الاتصال بالأحداث" و"مجتمع أناس معاصرين" يتشكلان من ارتباطات عديدة ومتحركة هما الوسيلة الوحيدة التي بها يمكن أن تتحقق إمكانيات الفردية.

تحدث الأطباء النفسيون كثيراً عن الانفصامات والتشتت التي يتعرض لها المرء بسبب انسحابه من الواقع وولوجه في عالم

* رالف والدو إيمرسون Ralph Waldo Emerson (1803- 1882) شاعر وفيلسوف أمريكي من أهم مؤلفاته كتاب Nature (الطبيعة) الذي فيه يتحدث عن نظرته إلى العالم حيث يقول بأن الطبيعة تشمل كل شيء إلا الروح التي يشترك فيها جميع بني البشر وأن الطبيعة موجودة لخدمة الإنسان. يصفه الشاعر والناقد الانكليزي ماثيو أرنولد Mathew Arnold بأنه أفضل وأهم من كتب في النثر الانكليزي بالقرن التاسع عشر. (م.)

داخلي محض. ولكن هنالك أشكال كثيرة دقيقة للتراجع بعضها أدخل في منظومات فلسفية وتحدث عنها الأدباء المعاصرون بكثير من التمجيد. وفي هذا يقول إيمرسون "عبثاً نحاول أن نبحث عن عبقرية تعيد إنتاج معجزاتها في الفنون القديمة، فمن فطرتها أن تجد الجمال والقداسة في وقائع جديدة وضرورية، في الحقل وعلى قارعة الطريق، في المتجر والمصنع." وللحصول على فردية متكاملة يتعين على كل واحد فينا أن يهذب حديقته. ولكن لا يوجد سياج حول هذه الحديقة، وهي ليست مكاناً له حدود ظاهرة حادة. حديقتنا هي العالم بأسره، وهي الزاوية التي بها يتصل سلوكنا في الوجود. وبقبولنا لعالم صناعي شركاتي نعيش فيه، ومن خلال وفائنا بالشرط المسبق للتفاعل معه نستطيع نحن الذين نُعد أيضاً أجزاء من هذا الحاضر المتحرك أن نخلق أنفسنا كما نخلق مستقبلاً مجهولاً.



الفردية

من الكتاب

من المعروف أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به. لكن المثل العليا، بما فيها الفردية الجديدة الفاعلة والمؤثرة، فيجب أن تتشكل اعتماداً على إمكانيات الظروف القائمة، حتى لو كانت هي نفسها الظروف التي تشكل عصراً صناعياً تسود فيه الشركات. فالمثل العليا تتخذ شكلها وتكتسب محتواها حين تعمل على إعادة صنع الظروف. وأما نحن وبغية أن يكون لدينا استمرارية التوجه، فقد نخطط لبرنامج عمل انتظاراً للمناسبات حين تظهر. لكن برنامجاً يتضمن غايات ومثلاً عليا إن بقي منعزلاً عن النهج الحساس والمرن يصبح عبئاً وعائقاً. والسبب في ذلك أن الطبيعة القاسية والصارمة لهكذا برنامج تفترض عالماً ثابتاً وفرداً ساكناً، وكلا هذين غير موجود. بل يعني ضمناً أننا نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل - وهذه محاولة تضع نهاية، كما قال أحدهم، للتنبؤ بالماضي أو في تكراره.

لوحة الغلاف للفنان بابلو بيكاسو

دار الفرقد
للطباعة والنشر - دمشق - سوريا